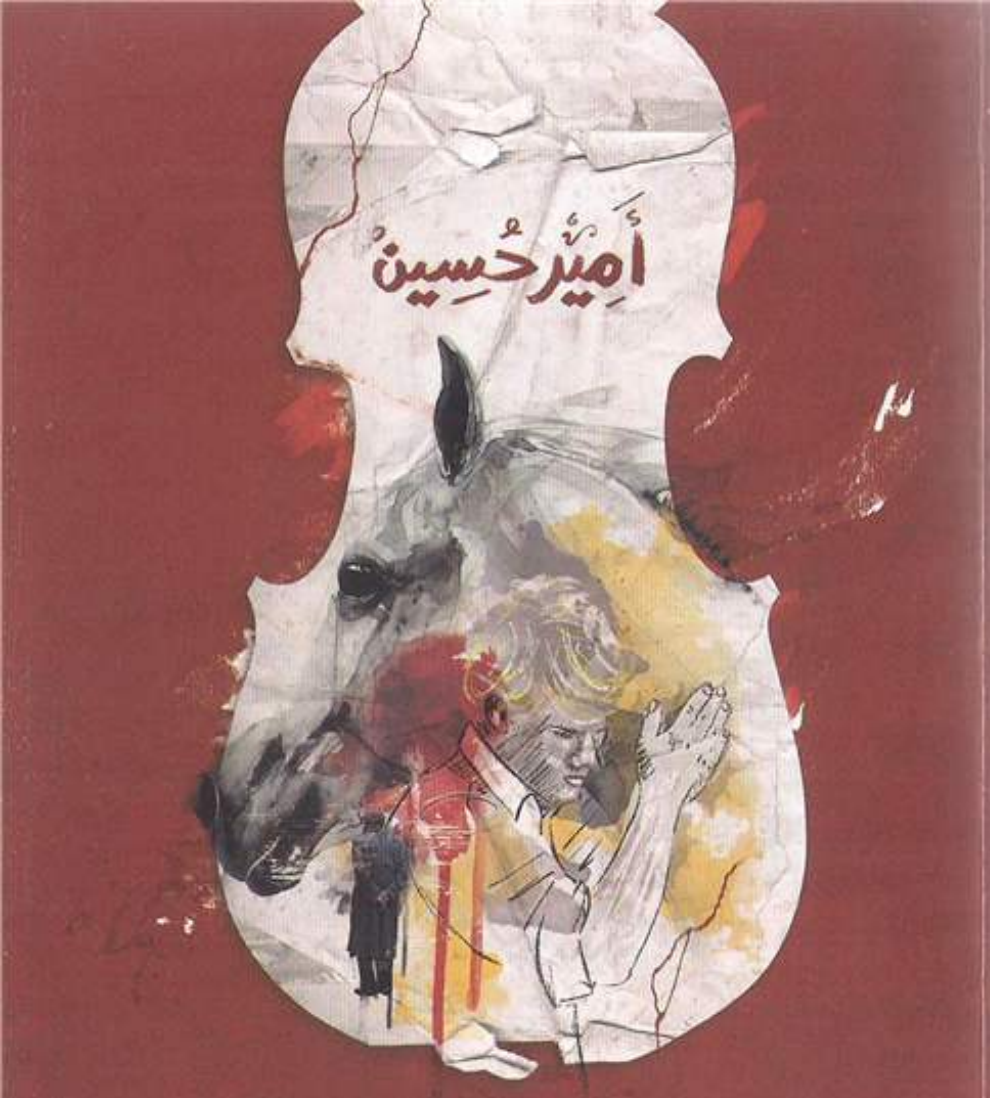

أَمِيْر حُسِين

نوفيلا

كَسرٌ مُضاعَف

دار الراية للنشر والتوزيع

كَسرٌ مُضاعَف

أمير حسين

بين الحب والكراهية
تموت حياة ويعيش موت.

9 683000 032809

توزيع
ميديا برو تك
MEDIA PRO . TEC

AL RAYAH
الراية للنشر والتوزيع

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

رقم الإيداع : 2747 / 2016
I.S.B.N : 978-977-426-188-6

15 شارع سوريا - المهندسين - ج . م . ع
هاتف :002 02 33446727 فاكس :002 02 33026637
E-mail:Rayatop@hotmail.com
WWW.DARALRAYA.COM

كسر مضاعف

للمؤلف

أمير حسين

عدد الصفحات : 152 صفحة
عدد الألوان : 1 لون
مراجعة لغوية : قسم المراجعة بالدار
تصميمات : القسم الفني بالدار
تصميم الغلاف : أحمد فرج

يجوز تصوير أو نقل أو نسخ أو توزيع أو نشر
هذه المادة بأي طريقة إلا بموافقة خطية من
دار الراية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
لدار الراية للنشر والتوزيع

2016

توزيع

MEDIA PRO . TEC

ALRAYAH

رقم الإيداع : 2747 / 2016
الترقيم الدولي : 6 - 188 - 426 - 977 - 978

15 شارع سوريا - المهندسين - الجيزة - جمهورية مصر العربية
تليفون :
002 02 33451851 - 33026637 - 33446727
E-mail:rayatop@hotmail.com

إلى الحقيقة

وإلى الحلم

على بعد خطوة قد لا نصل ،

وبعد أيِّ رحيل يمكن أن نبقى.

(على بعد خطوة)

كلنا يُولَد مرتين ، ربما لا نذكر لحظة المخاض الأولى ، لكننا نعيش الثانية بملء أرواحنا ، ننسلخ من برزخها حينما نتلقى صدمة العمر، فنجد أنفسنا نشهق بين عاصفة قيامتها لنُبعث من جديد، ربما في جسد آخر تسكنه روح أخرى، لكننا لا نعود أبداً كما كُنّا، أتذكر يوم تُوفِّي صديقي "شريف" في حادث سيارة وكيف كانت لحظة فارقة في حياة "أيمن" أخيه، فوجئنا به بعدها قد صار يغض طرفه عن الفتيات، بعدما كنّا نراه كل يوم برفقة فتاة مختلفة ، أكانت تلك هي اللحظة المقصودة؟

- الأعمار بيد الله يا نبيل يا بني .

- فاضل لي قد ايه؟

- تقريباً شهرين.

يصارحني الدكتور "عبد اللطيف" وأنا أجلس أمامه في غرفة الفحص المعتمة، غيرَ مصدق لما يقول، أي شهرين؟! أحاول أن أعارضه فيتحاشى النظر إلى وجهي، متصنِّعاً تدوين شيء ما في تقريري الطبيّ، ملامحه المضطربة وارتباك القلم

بين أصابعه يشـيان بأنه لا يجد حتـى ما يكتبه. هذه بالفعل لحظتي، ليسـت فرصة تغيير، إنها موعد تنفيذ. منذ أسبوعين فقط ، لم أكن أتصور أن شـمس الحياة قد بدأت تستدير، وأن ليلها قادم ، بكل ما فيه من وحشة وخوف وضياع.

مسـاعِدَتُه الشـابَّة الدكتورة "ريماس" تقف من وراءه ، في بقعة مظلمة بين ضوئين ، ضـوء مصباح المكتب وضوء لوحة الأشـعة ، عاقدةً ساعديها ومنكسةً رأسَـها، فيما دمعة تتلألأ من خلف عدسـات نظارتها، لماذا لا تتعامـل مع الأمر بذات البساطة والجفاء؟ أظنها لازالت تملك بعضاً من الإنسانية التي تمـوت فينا مع الاعتياد، كل ما نعتـاده لا نراه ، يمحوه الزمن ببطءٍ ماكر وأصابعَ خبيرة.

آه ... الزمن .

- في حالات كتير التزمت بالعلاج واتحسنت الحمد لله.

تُواسـيني "ريمـاس" في نبرة حنونة ، تمدُ لي بهـا أوتارًا من الأمل ، لكنيّ لا أرى سـوى فتائل سابحة في الوهم، التعلق بها لا يمنحني إلا مزيداً من السقوط ، لا شيء يمكن أن يفيد الآن، ولا شيء يُرجَـى ، القـدر أصدر حكمه وعلّقني على مشـانق الانتظار.

وريقات رزنامة التقويم المُعّلقة خلف ظهرها تَفِرُّ عائدةً بي

إلى اليوم الذي قرأ فيه أبي قائمة درجاتي في الشهادة الابتدائية، ردُّه كان قاسـيًا كالمعتاد ، صفعـة على وجهي المكتظ زلزلت جسدي الكروي السمين.

- هتعيش وتموت بليد وفاشل.

أهـرب بخطوات ثقيلة وجسـد يتهزهـز لأرتمي في حضن أمي ، تستقبلني بذراعين متلهفين للقيا ، وقلب يترنم أنشودة الحنـان ، تتلمَّـس موضع أصابع أبي على خـدي وتربت على ظهري ، تربيتتها تمنحني الأمان المنشود.

- بلاش تبقى قاسي عليه كده يا مصطفى ده ابننا الوحيد.

- ده غبي.

يشـتمني وهو يُطفِئ سيجارته في المرْمدة ، بينما أطفئ أنا حُرقتي في حضن أمي ، الانطفاء في حضنها لم يكُنْ مجرَّدَ بلسمٍ يبرد لوعة إحسـاسي، بل باباً أنفُذ منه إلى مروج خُضْر، أجري فيها خلف ذيل مُهر جميل.

تفلـت مني دمعة تظنهـا "ريماس" طليعة لأنـواء الوداع فتحول وجهها بعيداً، لا تعرف أنها مجرد دمعة قديمة، أختزنها منذ زمن بعيد، دموع الرحيل لم يحِن موعدها بعد يا دكتورة، فلازال أمامي ستون فرصة لأبكي كما يجب أن يكون.

الفجوات الداكنة في أشعة مُخي المعروضة على اللوحة المضيئة تضعني أمام فوهة قبر أمي ، أشاهدهم وهم يلقمون لفافتها البيضاء إلى حلق الظلام، وأشاهد أبي يبكي بينهم ويصرخ:

- أنا هدفنها هنا، عايزها تفضل قريبة مني.

لا أفهم ما يحدث! لكني أتصورها شرنقة ستخرج منها أمي فراشة بيضاء لتلفني بحرير حنانها ، أداوم على الجلوس إلى جوار شاهدها، أراقب الشمس وهي تهبط من السماء، فتدور حولها أوراق أقحواني التي نبتت هناك، ربما تأتيها فراشة أمي لترشف منها رحيق الحياة، لكن الأقحوانة لم تكن تمنح شمسها إلا للدبابير، الدبور الأحمر الكبير كان لا يتركها إلا بعد أن يمتص النهار.

الليل في حياتي لا يلد إلا ليلاً ، وفجوات مخي تزداد دكانة، الدكتور "عبد اللطيف" يحوم بالقلم المضيء حول حدود الورم الواضح بالأشعة، يرسم لريماس دوامة كبيرة ومخيفة. ضياع أغور في ظلمته لسنوات ، أتلقى خلالها مزيداً من الفشل، مزيداً من الصفعات ، لكن لا حضن هناك ، فقط علامات لأصابع خمسة ، تُحصي لي عدد مرات فشلي الكبير، فشلي في أن أصبح فارسًا أو سباحًا أو راميًا، فشلي في دخول

الجامعة، وفشلي في أن أنال قلب أي فتاة، ربما لم أعد صبياً بدينًا كما كنت، بل شاباً سويَّ الهيئة منسجمَ الملامح، لكنّي بقيت ممتلئاً ومملًا، والفتيات قطعًا لا يُحببن أمثالي ، لم يشفع لي شعري الأشقر ولا عيناي الخضراوان في أن ألفت نظر أي منهن، نظراتي الحادّة والنمش المنتشر في جلدي جعلا مني دوماً ذلك الفتى الغريب.

لا تتوقف غرابتي عند ملامحي ، بل تتعداها لشخصيتي، أتحول إلى إنسان صموت منعزل ، يستطيب الانخراط في عالم السكون ، خوفاً من أي شيء وكل شيء ، كما يظل الوقت كالنوم ، لا قيمة له في حياتي ، فلا معنى للأشياء التي تحتضر، والوقت يموت كل لحظة.

سيف العقرب الأسود يقطع رأس الساعة الرابعة ، قبل أن يواصل رحلته في حصد مراسي الميناء الأبيض، تغيب ملامحه المستديرة بعيداً، فتتقدم قسَمَات الدكتور "عبد اللطيف" والدكتورة "ريماس" ، لكنها سرعان ما تذوب في قطرتين مُعلقتين على حافة أهدابي .

يبدو أنني أبكي رغماً عني .

- الدوا ده هيخفف وجع الصداع لحد ما نبدأ جلسات العلاج.

يقولهـا الدكتور "عبـد اللطيف" مادّاً يـده لي بوصفة بها عقـارٍ مّا، أكاد لا أراه من خلف دموعي ، لا أرى سـوى بقعة حبر سائلة ، تختم ربما شهادة وفاتي ، أي عقار هذا يا دكتور؟! هل عقارك سيمنحني الحياة؟

ألتقطها فأدسُّها في جيبي، وأودعهما بصوت مخنوق، أخرج إلى نهـار رماديّ كئيب، سـماؤه متورمة بالغيوم ، وشـوارعه مغسـولة بالمطر ، سـيارتي الهونـدا الحمـراء المصفوفة أمام العيـادة تتباين في المشـهد مثل بقعة دم قانية على جسـد ميت، أدخلها لأمسـح دموعي قبل أن تسـتحيل سـيلاً هادراً أعجز عن إيقافه.

آه ، الصداع يزداد جشعاً .

أدير مفتاح السيارة فيهدر المُحرك ويتوهَّج وضع الاستعداد لتشغيل السي دي، موسيقى Danse Macabre تندفع كراقصة باليه متحمّسـة للعرض ، أثيرها ينسـاب إلى وجداني ذائباً مع صوت المطر في مَزيجٍ مأسـاويٍّ حزين، أحرك ذراع المسَّاحات فتتمايـل كأنها تشـاركنا كورال الموت ، لكـن المَطر لا يُمحى، المطر بـكاء والبكاء لا يموت ، تتشرَّبـهُ أرواحُنا مثلما تتشرَّب الذكريات الأليمة.

لماذا أبـكي الآن ؟ أليس هذا هو الموت الذي طالما تمنَّيتُه؟!

الثوب الأسود الذي أنتظره لأنه سيُداري فشلي ويستر عيوبي؟! ما الذي غيَّر قناعاتي عنه إذن؟! ألم تزل الحياة كما هي ، بشعة للغاية ، قاسـية للغاية ، وحقيرة أيضاً للغاية؟! أم هو إحساسي بالقهر لأنني أغادرها رغمًا عني!؟

تتعاظـم إحـدى القطـرات التي تـضرب زجاج السـيارة لتحتوينـي وأنا أصارع الموت تحت الماء ، دفعني أبي على نحو مفاجئ لأسـقط بحوض السـباحة ، أحسسـت أنني غارق لا محالة ، لكنَّ الماء حملني إلى السـطح سريعاً لأشـهق حلاوة الـروح، تتجـلَّى لي الأصوات المكتومة بالأعـلى ، فيُوجعني أن أسـمع ضحكات أقراني السـاخرة مني تتعالى ، بينما أبي يقول وهو ينتشلني:

- لازم تتجرأ والمواجهة هي اللي هتعلمك.

تُجفّف أمي صدري المكتـظ وتضمني إليها ، أنزوي لأفرغ الماء الـذي ابتلعته من معدتي ، وأفرغ معـه الكثير من بقايا حبي لأبي.

لماذا يكرهني ويحتقرني؟

أحضان مـن زجاج تفـرض عزلتي على ضجيج الشـارع ، وخيوط المطر المنزلقة على زجاج السـيارة الأماميّ تشـدُّ من نفسـها أوتاراً عـلى الكمان النائمة فوق كتفـي ، الكمان دائماً

تنـام عليها ، منذ لقائي الأول بها في معهد الموسـيقى العربية وهي جزء مني ، أعشـقها لأنها تحـترم وحدتي وتفهم حزني ، كـما أنَّ رنيم صوتها يذكرني بنبض أمـي ، أحياناً أمرِّر القوس عـلى الأوتار فتنفتح أمامي نافذة مبهرة ، أرى أمي من خلفها رافلة في ثوب منير تمد لي ذراعيها، بينما شعرها الناعم يتطاير، وشفتاها اللامعتان تبتسمان:

- وحشتني يا نبيل.

يحنو صوتها الناعم على فؤادي فأردُّ بلهفة:

- انت أكتر يا أمي.

- نفسي أشوفك.

- انا هنا قدامك.

أواصل العزف بحماس آملاً أن تقترب أكثرَ ، لكن الموسيقي تستحيل صاخبةً حينما تعاركها موجات سُبَاب يوجهها أبي إلى شاطئ كرامتي:

- غبي ومتخلف.

تصرخ الأوتار تحت نَصْل القوس حتى تنقطع وتسيل تحت أجفـاني ، أعتصرها فتفيض من مقلتي إلى خدي ، المَسّـاحات

تكنس المطر يميناً ويساراً كأنها تمسح دموعي، والمشهد يتجلّى كاملاً في لحظة كاشفة ، أفاجأ فيها باندفاعي الحادّ نحو الصدّام الخلفيّ لشاحنة كبيرة ، المسافة بيني وبينها أبعد من دموعي، لكنها أقصر من عمري، لافتتها السوداء تعترض بصري :

"احيني النهار ده وموتني بكرة"!

يلطمنـي المعنـى للحظة قبل أن أدعـس المكابح في ذعر، تنزلق السـيارة على الأرض المعجونة دون أي سـيطرة مني ، أصطدم وأتزلزل ، تقتلعنـي الصدمة لأخترق الزجاج الأماميّ، عـشرات من القطع الزجاجية ترشـق جسـدي، يصعقني ألم حارق ، وأغرق في الأسود العميق.

موسيقى Danse Macabre تعزف في الفراغ .

قطع من النور تتمدَّد وتتقلـص، وجوه باهتة جزعة تطل من معاطف بيضاء مخضبة ، وجسـدي مجرور فوق شيء ما، وهج مبهـر يغمرني ، صوت نبضي مكتـوم كمضخة تختنق ، متسارع كأنفاس تلهث ، ظلام سحيق ، روائح لاذعة ، صحوات، غفوات ، رنين ، صداع ، صمت ، صفير ، موت.

أصوات غامضة تتجلى.

- الحالة مستقرة.

أفتح عينيَّ على مهل لأستبين صاحب الصوت ، بضع ثوانٍ تتمطط فيها الملامح المتماهية بين الأبيض والرمادي قبل أن تنفصل ، أبصرُ بعدها قدمي ملفوفة في جبيرة معلقة ، وأجد الدكتور "عبد اللطيف" والدكتورة "ريماس" ومعهم طبيب آخر، يتناقشون عند الطرف المقابل لسريري ، تتجلى مع استفاقتي شراسة الألم ، فأتذكر الحادث ، وأتذكر المرض والحزن والموت، عاصفة حنق تهب على حبالي الصوتية ، فتحرك لساني الثقيل لينطلق بسؤال ساخط : فاضل لي قد ايه؟

- حمد لله على سلامتك.

تهنئني "ريماس" محاولة احتواء حنقي ، فلا أكترث لها، أنفض رأسي يميناً ويساراً مكررًا سؤالي: فاضل لي قد ايه؟

وكعادته لا يتردَّد الدكتور "عبد اللطيف" في إحسان ذبحي:

- فات شهر.

يهبط قلبي في صدري ، ويتصاعد الطنين والصداع والوجع ، آه .. الموت يلعب معي لعبته الكبيرة ، منذ غفوة كان نصيبي من الحياة ستين يوماً ، الآن لم يبقَ لي منها إلاَّ النصف.

- أنقذتوني ليه؟

أصرخ بكل ما تستطيع حنجرتي المخدرة من قوة ، فألمح

"ريماس" تداري وجهها بكفها ، بينما يجادلني "عبد اللطيف":

- مفيش حد بيموت قبل ما يستوفي عمره ورزقه يا بني، لسه لك في الحياة نصيب.

أتذكر كلمة اللافتة ،

"احييني النهارده وموتني بكرة"

فأسكت ، أسكت فوراً، أسكت تماماً.

***

- 2 -

أفضل ما في هذا الحادث أنني قضيتُ أغلب أوقات الألم في غيبوبة تامّة ، أخبرتني إدارة المستشفى ـ التي نُقِلت إليها ـ أنهم اتصلوا بالدكتور "عبد اللطيف" والدكتورة "ريماس"، بعدما عثروا على الوصفة الطبية في درج سيارتي المنسحقة، وأنَّ الأخيرين أبلغا "صلاح" مدير شركاتنا بما حدث، على اعتبار أن الدكتور "عبد اللطيف" يعرفه ، وأنهما كانا يتابعان حالتي يوميًا وبشكل مكثّف ، لازلت لا أفهم سرّ اهتمامهما بي ، الدكتور "عبد اللطيف" عمليّ للغاية بحكم عمره وخبرته ، و"ريماس" لم تطلع على حالتي إلا قبل أسبوع واحد ، ما ينفي أي سبب للتعاطف! ثم ما الفائدة من الاعتناء بإنسان ميت؟!

بجبيرة لا تُظهِر سوى أصابع قدمي اليسرى وعكاز أعتمد عليه أقوم من على كرسي العجل لأدلف إلى سيارة صديقي "صلاح" ، زميل دراستي القديم ومدير شركاتنا الحالي ، هو الوحيد الذي استمرت صداقتي به من بين كل من عرفتهم، كان دائماً مَّا يتصدَّى لأي محاولة لإهانة وزني وبلادتي أمام زملائنا، وطالما دخل في مشاكل مع الجميع بسببي ، لا أدري لماذا كان يفعل ذلك؟ ربما هو ثمرة دعاء أمي لي :

- ربنا يرزقك حب الناس يا نبيل.

يستقبلني بعناق دافئ ، ورائحة دخان لا تغادر سترته الرسمية أبدًا ، يُعدل من شعره الأسود الكثيف ، ويحبِك لي ياقة البالطو، قبل أن يتركني ليتعاون مع موظفي المستشفى على إيداع حقابي إلى داخل السيارة. فرحته الصادقة ، تؤكد لي أن الدكتور "عبد اللطيف" أوفى بوعده ولم يخبره بخطورة موقفي.

- أنا مقولتش لحد على طبيعة المرض اللي عندك يا نبيل، وكمان هوافقلك على الخروج زي ما طلبت، لكن بشرط، لازم تكمل كورس العلاج بالإشعاع اللي بدأناه معاك في فترة الغيبوبة.

- علاج! ليه؟

- بص يا نبيل السرطان زي الشيطان، لو حس منك ضعف أو استسلام، بيسيطر عليك، لكن لو لقي عندك قوة إيمان وعزيمة، بيضعف وممكن يموت.

- الضعف قدر يا دكتور.

- الضعف اختيار يا نبيل.

يعود صلاح ليهنئني:

- حمد لله على سلامتك يا نبيل.

لكني لا أرد ، لا أجد لتهنئته أيَّ معنى، أي سلامة يقصد؟ أنا عـلى قيد الموت. أتذكر، وهو يُعَدل لي موضع الكرسي الأمامي لأمد قدمي ، تهنئة أبي لي يوم نتيجة الثانوية العامة.

- 70%!، يدخلوك ايه دول؟

يقولها مسـدداً لوجهي صفعة عنيفة تزلزل كياني وتشعل جنوني ، لاسيَّما أنها على مرأى ومسمع من الأقارب والأصدقاء وحتى الخدم ، أنصب وجهي في وجهه زامَّاً شفتيَّ من الغضب، بداخلي عاصفة انتقام شرسـة ، تحرضني على أن أرد الصفعة صفعتين ، لكنها سرعان ما تخمد حينما يواصل إهانتي:

- انت شـوهت اسمي وسـمعتي وحطمت الاسم اللي انا تعبت أبنيه طـول عمري وبدل ما تكون امتداد ليا ولنجاحي في الحياة، بقيت عالة عليا وعار بهرب منه.

لا أرد ، لم يكن في إمكاني أن أفعل ، قاسٍ جداً أن يهينك من كنت تنتظر منه أن يهنئك ، أترك أقاربنا يلومونه وأنكس رأسي وأصعـد غرفتي فأنزوي وأبكي، أبـكي كثيراً، أبكي حتى يضعف نظري.

يقاطعني بعدها لفترة ليسـت بالقصيرة نعاني فيها الخرس التـام ، تصيبنـي حالة قاتمة مـن الاكتئاب والإحبـاط ، أترك لحيتي الحمراء تنمو، وشـعري الأشقر يشعث ، وأقضي الأيام

لا أغـادر غرفتي إلاَّ نادراً، أنام أغلب الوقت وحينما أسـتيقظ أشـغل نفسي في أي شيء تافـه ، أتأمل الجدران ، السـقف ، أداعب شاشـة هاتفي ، المهم أن أقتل الوقت ، وعندما أشعُر بالجوع أنزل إلى المطبخ لألتقط أي ثمرة فاكهة فآكلها وأصعد، يمر شـهر وأنا على تلك الحـال إلى أن يجيء اليوم الذي أكون فيه في المطبخ ، أقشّر ثمرة برتقال وأشـطرها إلى خمس قطع، بعدد مرات خيباتي ، وإذ بفكرة مفاجئة تراودني وتسيطر على تفكيري ، ربما كانت بداخلي من قبل ، وربما أوحت لي بها لمعة السكين المختنق في قبضتي ، لا أدري ، الأكيد أنني لا أقاومها ، وأستجيب لها في لحظة غبية كافرة ، أقطع فيها شرياني لينفتق الجلد ويتدفق الدم ، أنتفض وأرتعش ، تخونني قدمي فأسقط على بـلاط المطبخ مخضباً كلَّ شيء من حولي ، تتخالط أمامي الموجودات وتتأرجح كأنَّ شـبكيَّتي تهتـزّ، ثم تنطفئ الصورة وكأننـي أفقد بصري ، لا ألمـح بعدها إلاَّ أقدامـاً تتجمَّع من حولي، يليها ظلُّ أبي وهو يجري مع الأطباء إلى جوار "الترولي" الذي يحملني بين أروقة المستشـفى ، فيما رأسـه يميل نحوي وصوته يبكي : "ليه تعمل في نفسك كده يبني ليه توجع قلبي عليك" .

هكذا كانـت العلاقة بيننا ، لحظات الاقـتراب كانت دائماً لسـبب طارئ، كمرض يصيبني أو مشكلة أتعرَّض لها ، بشرط أن تكون المشـكلة قدريَّة وليست خطأ يستوجب التقريع أو

العقاب ، كأنَّ الحنان في قلبه لا يُستخرج إلا بطعنة تصيبني أو حفرة أتعثر بها، لا أذكر أنني رأيت رجلاً أقسى منه في لحظات احتياجي للحنان ، ولا ألين منه وقت الأزمات والمشاكل ، بمجرد ما يصيبني سوء تلين ملامحه العبُوسة وينخنق صوته الصارخ، فتستحيل برودته حرارة لافحة من الإحساس ، لكنه أبداً لا يكون دفئاً ، لم يفهم أبي معنى الدفء ، كان إما برداً أو جحيماً، ولم يجرب معي معنى السلام ، فهو في حالة حرب دائمة ، اعتاد أن يخرج منها منتصراً، أتصور أن المادة التي صُنع منها قلبه تشبه هذه الجبيرة التي تلف قدمي ، فقدرَ ما تكونُ ليِّنة في أصلها تكون متحجرة حين تقسو، تظن أن في قسوتها علاجاً لكل شيء ، وأن ضمتها كما تصلح لإصلاح الكسر تصلح أيضاً لمنح الحب ، لذلك أعرف جيداً أن حبه لي كان ضارًا ، محاولاته لتغييري لم تكن سوى رفضٍ للهزيمة من رجل اعتاد النجاح ، أتذكر أنَّ إيقاع دقات قلبه لم يكن يعزف ذات النغمة التي كانت تعزفها مُهْجة أمي ، ربما هو كان يحافظ على امتداده ليس إلاَّ ، أتهكم وكأنني أتشفَّى منه ، هذه العائلة لن يُعَدَّ لها امتدادٌ يا أبي، ستنطفئ في ذات المَرْمدة السوداء التي انطفأت فيها جذوة حياتك ، وحياة أمي من قبلك.

النهار "بورتريه" مظلم أبدعه فنَّان يائس ، والشمس ليست هناك ، لا يوجد إلا ذكرى حزينة لبقايا مرورها ، و"صلاح" يكلمني :

- وحشتني قوي يا نبيل، لما الدكتور عبد اللطيف اتصل بيا كنت هتجنن، استغربت إنك تعمل حادثة زي دي، انا طول عمري بقول عليك هادي في سواقتك.

- وانت كمان يا صلاح، تقريبا سرحت وأنا سايق.

- المهم انك بقيت كويس الحمد لله، انا قلت للناس كلها انك رحت شرم وانك قافل تليفونك علشان محتاج تختلي بنفسك شوية، مجبتش سيرة لحد غير من يومين بس، مقدرتش أقاوم زن ريدا زي ما انت فاهم.

- أنا كنت هطلب منك كده فعلا.

أقولها بينما أمنحه نظرة حسرة ، "صلاح" رجل تمنَّيتُ في فترة من حياتي أن أكونه ، مستقر نفسيًّاً ، لا أحدَ يصنع الطقس بداخله ، كما أنه على مستوى العمل يجيد التعبير عن نفسه وينفذ إلى هدفه دائماً بأقصر الطرق الممكنة ، شخصيته كانت تعجب أبي ، كان يتمنى أن أكون مثله ، صارحني بذلك ذات مرة ، وهما يناقشان تقرير المبيعات:

- أنا عارف انت مطلعتش زي صاحبك ليه

يبتلعنا الزحام والشوارع والناس ، نخوض رحلة تيه نوائم بها الطريق الملتوي صوب المنزل ، أعمدة الإنارة تناولنا إلى بعضها البعض ، وتُخمد في كل مسافة بينها مزيداً من ضوء

المغيب ، والسيارات تندفع باستهتار نحو الفجوة السوداء التي بدأت تتكوَّر في السماء البعيدة ، صخب أبواقها يدفعني أن أسأل:

- هو فيه ايه يا صلاح، حاسس ان الشوارع زحمة قوي النهار ده.

ينفض سيجارته خارج زجاج السيارة ، ويجيبني من دون أن ينظر إليَّ :

- الليلة ليلة راس السنة يا نبيل، كل سنة وانت طيب.

أتأمَّل مزيج الأضواء الملوَّنة من حولي، وأفكّر في كل هؤلاء الذين مررنا بهم، وماذا تعني الحياة بالنسبة لهم، في ظل نهاية يقف عندها الموت مُلوِّحاً برایاته الداكنة! لماذا يتسابقون على مقاعد رحلة تبغي الوصول إلى العراء؟

أنوار الشوارع المنعكسة داخل حدقتي تُكوّن ثُريًا كبيرة ، أقف من تحتها في بَهْو الفيلا، أكلم أبي:

- انا عايز أسجل اسمي في معهد الموسيقي العربية.

- موسيقى عربية! يا نهار اسود، انت عايز تموتني وتقهرني؟

- انا حاسس نفسي بحب الكمان، أول مشوفتها حسيت انها قريبة مني.

يُشير لي بشماله :

- زي ما كنت حاسس ان الفرس المعيوب قريب منك؟

أتجاوز تلميحَه المُركَّب المُهين وأعارضه :

- انا مقدرتش أكون فارس بس ممكن أكون عازف.

- عازف ايه وزفت ايه، بدل ما تقولي اسافر بره ادرس الطب البيطري، وارجع اشتغل معاك في الشركة ولا المربط ، عايز تشتغل رقاص في الكباريهات؟

- العزف فن راقي، وأنا حاسس إني ممكن أكون عازف ناجح، وليا اسم.

- اللي زيك عمره ما ينجح في حاجه، انت عمرك ما هيكون لك بصمة في الحياة، هتعيش وتموت نكرة مفيش حد هيحس بيك، عارف ليه؟ لان الحياة عايزه اللي يجتهد ويتعب وانت لا بتتعب ولا عايز تتعب.

يأساً مني يدير وجهه مُشيحاً بذراعه ، ويتركني أفعل ما أريد ، لا يوافق ولا يرفض ، لكنَّ ردَّه ـ رغم ذلك ـ يأتي شديدَ القسوة ، لا يكتفي بسحب سيارتي وبطاقة ائتماني وكل ما يعبر عن شخصيتي ، بل يقرر أن يتزوج ، ومن أول سيدة يجدها مناسبة ، الدكتورة "نسرين" زميلته بهيئة التدريس، لم يفعلها

في حيـاة أمي لأنه كان يحبها بحق، ولا أبالغ إن قلتُ أنه كان مُتيَّـماً بها، وهـذا منطقيّ، أمي كانت أنثـى رقيقة لدرجة لا توصف، وأبي لم ينسـها، هو أراد أن ينجب طفلاً آخر، يعوض به خيبته في ولده الفاشـل الوحيد، إلاَّ أنه ولأول مرة في حياته ذاق طعم الفشل، مات عن الدكتورة "نسرين" بعد ستة أشهر فقط من زواجهما، وخلال تلك الفترة كانت دائماً ما تشتكي لي أنه يخطئ في اسمها، ويناديها باسم أمي "مَلَك".

تبالغ الدكتـورة "نسرين" أحياناً وتقول أنَّه مات بسـبب إحساسـه بالجريمة التي ارتكبها في حق أمي، بالتأكيد لا أقتنع بكلامها، مـن دون أن يؤثر ذلك على احترامي لها، علاقتي بها ودودة لحـدٍّ كبير، كل ما في الأمـر أن وجودها في المنزل كان يؤذيني نفسيًّا.

يهـرب "صلاح" مـن الزحام وينفـذ إلى الطريق السريع، فأسـمع عجلات السـيارة تكسـح طبقـة المطر التي تكسـو الأسفلت، منطلقة في براح الحارة اليسرى.

"أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة".

حيرة كبيرة وأنا أجلس على ركبتي أمام جثمان أبي الملفوف بالكفـن الأبيـض، دائرة قاتمة مـن أقدام المعزيـن تطوقني، والأسـود يصبغ كل شيء من حولي، يصبغ حتى كفن أبي، رغبة

عارمـة تتأجَّج بداخلي بأن أعاقبـه وأردَّ له كل صفعاته دفعة واحدة، رغبة عمياء لا أجد لها أسوأ من أن أدفنه وحيداً وبعيداً عن قبر أمي، لن أقبل أبداً أن يجمعنا الموت كما فعلت الحياة، لن أعيش مأساتي مرتين، أعرف جيدًا أنه أوصى بأن أدفنه معها كي يضعنـي أمام اختبار صعب، فهو يُوقن تماماً أنني لن أرضى بذلك، كم أكرهه، يصر على إخضاعي حتى في لحظة موته!

- طول عمرك عاجز إنك تتخذ أي قرار طول عمرك مهزوز.

أدرك دقـة تقييمه لمعـدني الرَّخيص حينـما أجد دموعي تنساب رغمًا عني، لماذا أبكيه ، لماذا لا أسيطر على تلك الدموع اللعينة؟ ألهذه الدرجة أنا متردد وضعيف؟

تشـق الدكتـورة "نسرين" الحلقة السـوداء وتجلس على ركبتها لتربت على كتفي، أرفع رأسي لأسـتبين شـبح ملامحها المتـماوج في دموعي، بشرتهـا البيضاء تلمـع كدمعة يبكيها النور وسط حجاب أسود، أشاهدها تُومئ لي برأسها أن أفعل، افعـل يا نبيل ، تعبث بعقلي الذكريات، أتذكر يوم اشـتري لي أول كـمان، ويوم كسره، يوم أهداني الهونـدا الرياضية، ويوم سـحبها مني، يوم طلبت منه صوري ولقطاتي مع أمي وكيف رفض وحرمني منها، تتتابع المشـاهد وتختلط الصور فتمتزج الأصوات، وتتراكب الألوان، يهاجمني صداع مرير، يمتد طنينه لوقت ليس بالقصير، ثم يبتلع الأسود كل شيء.

سكون مشـوش ، أعلق معه في لحظة صمت متوترة، كأن هواجسي قـررت التوقف عن قـرع طبولها، انتظاراً لسـماع قراري النهائيّ .

- انا بحبه يا ملك، لكن دلعك فيه مش هيعمل منه راجل يقدر يعتمد على نفسه، واحنا مش دايمين له.

- انت بتطلب منه اكتر من قدراته يا مصطفى.

- أنا بكره اني اشوفه ضعيف ومستسلم.

- هو مستوى ذكاءه كده، الحكاية متجيش بالعافية.

- كل انسان ممكن يبقى متميز بالاجتهاد، ربنا خلق له مخ زي مـا خلق لغيره، أنا اتولدت فقير وشـقيت وتعبت لحد ما بقيت أستاذ جامعي وعندي شركة أدوية ومربط خيول أصيلة مفيش زيه في مصر، على الأقل هو اتولد مش ناقصه حاجه.

- مفيش حد ينفع يبقى زي حد.

- لكن ينفع حد يكون أحسن من أي حد.

أدفن رأسي في صدري وأقول بصوت متهدِّج:

- هدفن أبويا مع أمي .

تحضننـي الدكتور "نسرين" حضناً دافئاً أسـمع فيه نبض

أمـي، ذات النغمـة وذات الإيقـاع، أنهل منـه حتى تغمرني السَّـكينة، ويسـتقِرَّ فؤادي المرتجف، فأقوم لأملي بصري منه لآخر مرة، يقْشعر بدني حينما أراه هامداً وضعيفًا للمرة الأولى في عمـري، فأرتكب فعلـة غبية، تتجـاوز كل حماقاتي، أميل نحوه وأقبِّله مُبللاً وجهَه بدموعي، ومن وسط ضعفي أهمِسُ في أذنه:

- الله يرحمك على قد ما عذبتني.

وبأصابعَ ترتعش، أغطي النعش بالكسوة الخضراء، فتنطفئ كل الأنوار التي سـطعت في ذاكرتي عنه، وأغرق في الأسوَد من جديد.

وخْزَة ألم تشق قلبي فجأة فتفلت مني أنّة يسمعها "صلاح" بوضوح، يدير وجهه لي فيما عيناه السوداوان تبرقان بالقلق:

- مالك يا نبيل في حاجه بتوجعك؟

- تقريبا المسكنات بدأ مفعولها يروح.

- تحب أقف نشوف الدوا في الشنط؟

- لا مفيش داعي، خليها لما نوصل.

نصـل إلى التجمـع الخامـس ونقترب من الفيـلا، فيطلق "صـلاح" النفير ليفتح "الحـاج كامل" ـ مدير شـئون المنزل

والموظف الوحيد الذي أبقيته ـ مصراعي بوابة الدخول، يدير "صلاح" عجلة القيادة ليشق بشعاعي السيارة ظلام الحديقة، ويدلف ليستقر بها أمام سلم الفيلا الرخامي ، يدور حول مقدمتها ليعاونني على النزول بينما يجلب "كامل" الحقائب، نصعد إلى الدور الثاني، حيث غرفتي، أفتحها ببطء متوجِّساً، فينهمر نور الرواق في الغرفة المظلمة صانعاً مثلثاً منيراً، يكشف لي عن صورة بانوراما معلقة بعرض الجدار فوق سريري، لقطة تجمعني وباقي أعضاء فرقة "مقامات"، فرقة العزف التراثية التي أنتمي لها بالإضافة لأربعة من أصدقائي، "حازم" عازف القانون و"جميل" عازف البيانو و"رأفت" عازف العود، وكذلك "ريدا" مطربة الفريق، أوركسترا صغير نقدم من خلاله عروضًا تجمع بين الأصالة والمعاصرة، كنا قد التقطناها من العرض الأخير الذي قدمناه في الأوبرا، صورة ملآنة بالحياة والبهجة يغلب عليها الأحمر الزاهي و الأبيض الساطع المتباين مع لون الجدار الرماديّ الداكن.

أضيء الغرفة لندخل أنا و"كامل" و"صلاح" فأقول:

- لو سمحت يا حاج كامل عايز منك طلب.

يضع "كامل" الحقائب أمام خزانة الملابس على يمين الباب ويعتدل ليستفسر: أأمر يا نبيل يا بني؟

- عايز على الجدار ده ساعة ونتيجة تقويم.

وأشير بذقني للجدار المواجه للخزانة، فيندهش، يبدو ذلك في انضغاط تجاعيد جبهته وانفراج حدقتيه، لكنه يستجيب بنشاط اعتدتُه منه رغم حجمه الضئيل وقصر خطواته، لا أعرف عمره بالتحديد، فمنذ ولدت و"كامل" يعمل لدينا، وبشكل روتينيّ لا يطرأ عليه أي تغيير، حتى زيه الشتوي لا يجدده، البنطلون الزيتوني والبلوفر البندقي، ربما لم ألحظ تقدمه في السن من قبل، لكني اليوم أرى أن الموت قد بدأ يرسم لوحته التجريدية على ملامح الرجل، كرمشة حادة حول العينين، خطوط متشابكة غائرة في الوجه بالإضافة لكتل مبرومة في الرقبة، الموت لا ينسج خطته بنفس النمط إذن، البعض ينقضُّ عليهم، والبعض يستدرجهم.

رنين ال iPhone ينتزعني من أفكاري، والكاشف يتوهَّج مُظهرًا اسم "ريدا" ملحقاً بصورتها الجميلة، وكالعادة، رأسها ملقى إلى الخلف، وضحكتها واسعة عابثة، أترك "صلاح" يتفاهم مع "كامل" حول مواعيد الأدوية وجرعاتها، وأمسح الشاشة لأستقبل صوتها الدافئ:

- نبيل أنا مش مصدقه إني بكلمك، وحشتني قوي الفرقة كلها هتجنن وتشوفك.

- انتم كمان هتوحشوني قوي.

- هنوحشك ازاي؟

أمسح دمعة فرّت مني قسراً وأقول:

- اقصد وحشتوني .

- احنا زرناك كتير بس منعرفش إنك هتخرج النهارده .

- أنا كمان مكنتش اعرف.

- مال صوتك؟ انت لسه تعبان؟

- آه شوية.

- معلش الحمد لله انها جت لحد كده، كلنا ممكن نتعرض لحادثة يعني مش نهاية الحياة ومسيرك تفك الجبس وتبقى كويس.

لا أرد فتسترسل في كلامها:

- انا هجمّع الفرقة ونجيلك بكرة من بدري.

- اوك هستناكم.

- ماشي يا قلبي مع السلامة.

تُنهي المكالمة فأكشط دموعي بأناملي وأتذكر يوم خفق

قلبي لها، وقتها لم أكن أفهم أيَّ شيء عن الحب، مجرد عناق سريع منحتني إياه يوم توفي أبي، عبث بعقلي وجعلني أتصور أنها تحبني، عطرها أوقد بداخلي ذكرى حالمة لحضن أمي، لم أسمع من قلبها ذات الإيقاع الذي كانت تعزفه نبضات أمي، لكني أقنعت نفسي بأنَّ الأمَّ غيرُ الحبيبة، إلاَّ أن المسألة انتهت قبل أن تبدأ، فلم أكَّدْ أصارحها حتى رأيت في اتساع عينيها دهشة استنكار مؤلمة، كأنها تقولُ لي: أغبي أنت؟ لست حُلمي ولن تكون ، لم تنطقها ، لكن نبرتها المرتبكة صرخت بذلك:

- نبيل انت زي أخويا .

لم أذُق في حياتي كأساً أشدَّ مرارةً من ذلك الذي دعوتها له على طاولة مصارحتي، أحسستُ بأنني أتضاءل، وأن المسافة التي تفصل بين مقعدينا تتمدد وتتباعد، تمسي أبعد من أن أسمع بقية كلامها، أبعد حتى من أن أراها، وأن صدى تغريد الطيور التي كانت تجتاز السماء راحلة نحو قرص المغيب لا يحتفي بنا كما كنت أظن، بل يُشيِّعنا إلى وجهتين متعاكستين، ندمتُ حينها على تعرية تلك المساحة المحتجبة من مشاعري، فلم يكن قراري هادئاً ولا مدروساً، كان ثورياً طائشاً، موتُ أبي جعلني أظن أن كل أبواب السعادة ستنفتح لي على مصراعيها، ولِمَا لا وقد تحرَّرتُ من القيد الذي طالما كبَّلني به تحت قدميه مثل كلب الصيد؟ لذلك رفْضُ "ريدا" كان بمثابة ارتداد

صادم لحالة النشـوة التي خلفها رحيله. مذاق مرير لإخفاق جديـد، لكني بالأخير تجاوزت الأمر. دماثة خلقها سـاعدتني على ذلك، يكفي أنها لم تخبر أحداً بما جرى ولم تستغل مراهقة عواطفي لصالحها.

إلاَّ أنني أعود وأحترق بنـيران الغيرة، حينما تصُبُّ نظرات الإعجـاب المتبادلة بين "ريدا" و"صـلاح" حميمَ القهر داخل حلقي، علاقة الحب التي تنشأ بينهما تصهر بقايا ما في روحي من إحساس ، تمتلئ نفسي بالهزيمة لدرجة أنني أصاب بالمرض وأهـرب من حضور حفـل خطبتهما، لم يكـن باحتمالي رؤية قُبلتَـه وهي تنطبع على خدها، علامة حبِّها له ماهي إلا ندبة ضعف تحفر لنفسها أخدوداً جديداً في شخصيتي.

ألتفـت إلى "صلاح" الواقف مـن ورائي وفي ملامحه تتكتَّل علامات التعجب، أوجِّه له سـؤالاً مباشراً لكن بصوت خفيض يكتم أكثر مما يبوح:

- هو رصيدنا في البنك كبير يا صلاح؟

يتفاجأ بالسؤال، لكنه يرد بشكل بديهيّ:

- الخير كتير الحمد لله؟

- طيب عايز كشف حساب عن السيولة الموجودة وياريت يجيلي بأقصى سرعة، ابعتهولي حتى على الإيميل.

- حاضر، بس فهمني انت ناوي على إيه؟

- معلش ريحني واعمل اللي اقولك عليه من غير متسأل.

يسكت قليلاً كأنه يحاول أن يفهم، ثم يعود ليسأل:

- نبيل انت فيك حاجه؟ زعلان من حاجه؟ حاجه مضايقاك؟

- ليه بتقول كده؟

- انت مش شـايف نفسك! دموعك موقفتش من وقت ما خرجت من المستشفى، وعينيك حمرا زي الدم.

- لا بس يمكن ظروف المرض اللي مريت بيها خلتني اشوف حاجات مكنتش شايفها الأول.

يتردَّد قليلا ثم يأتيني صوته مُحمَّلاً فوق تنهيد طويل :

- يعني انت كويس؟

- انا هابقى كويس لو عملت اللي طلبته منك.

- زي ما تشوف.

- شكرا يا صلاح على تعبك معايا.

- عيب يا نبيل متقولش كده، احنا اخوات، بس لو حسيت بـأي تعب اتصل بيا فورا وفي أي وقت، أنا كلمت المستشـفى

يبعتولك ممرضة تيجي تتابعك الفترة الجاية.

- لا لا ملهاش لازمة.

- ليه؟

- الحـاج كامـل كفاية، انت عارف انـه مربيني وانا برتاح معاه.

- زي ما تشـوف، أنا هسيبك علشـان عندي شغل كتير في الشركة بس أي حاجه تحتاجني فيها اتصل فورا.

يمنحني عناقـاً قويّاً ويغـادر، يتركني لأختلي بمعشـوقتي الجميلة، الكمان.

لازالـتْ كما تركتها، متكئة على الجدار فوق خزانة الكتب، كأنها تنتظر قدومي، يا الله، كم أوحشـتني، لا أتصور أنني لم ألمسها كل تلك الفترة وأنا الذي لم أفارقها ولا مرة منذ عرفتها، أحملها وأضمُّها، أمنحها قبلة اشـتياق كبـير، أطفئ بها حرقة ابتعادي عنها.

لا أحـد يفهم أبداً كيـف هي علاقتنا يا صغـيرتي، لا أحد يتصور قصة عشـقنا، لا أحد يعرف أنني بالنسـبة لك هركليز الضخم وأنت أميرتي الفاتنة التي تعشـق أن تتسـلق صدري وتمدد جسدها الساحر بين ذراعي وكتفي، تتدلل حتى أعانقها

بذقنـي فتفرد شـعرها الذهبـي الطويل من فـوق وجهها، وتدعـوني لأغازلـه بأنامـلي كي تحاديني، كـم يلامس صوتك الحزين كل أوتار الشـجن في دواخلي، كـم يبثني من الحنان والمواسـاة، راقصتك كل رقصات الحيـاة بما فيها من ألم وأمل، فهل تجمعنا يوما رقصة من رقصات الموت؟!

- فاشل عمرك ما هتسيب ذكرى في الحياة،

- فات شهر.

أشـعر بانقباض مفاجئ في قلبي، فأضمُّها كأني أحتمي بها، أو كأني أحميها، أريح جسـدي المكدود فوق السرير، وأغمض عينيّ.

ظلام في ظلام، سواد ليس فيه إلاّ بقعة ضوء، ومسرح أقف عليه وحيداً ومستوحشاً، الكمان نائمة على كتفي، وشيء غريب يحـدث لي، القوس يتمايل فوق الأوتـار، لكن دون أن أحركه، دون أن أفعل شـيئاً، أذرعي منسـدلة إلى الأسـفل وموسيقى "رقصة الموت" تعزف نفسها بانفعال جارف، إيقاعها الملحميّ يتصاعد وأنا هائم معها في حالة وسـط بين الوعي واللاوعي، لكـن ماذا تفعـل بقعة الضوء هنـا ؟ أنا لا أعـزف لأحد، لا أطيقها ولا أريدها، أريد فقط أن أغرق في الظلام، أنا والكمان والموسيقى والألم.

نبيـل ... أحدهم يناديـني، لكن العزف يسـتمر، نبيل ... أرجـوك أيها القوس اسـتمر، صـوت الوتر يسـتحيل غليظاً سـاخطاً، صول .. ري.. وبقعة الضوء تخفـت، نبيل ... نبيل ، أنامل تُربِّت فوق كتفي، صوت هامس يتنامى، نبيل ... تتلاشى البقعة ويتوهَّج المسرح ... أفيق.

أبـصر رؤوسـهم تظللنـي، "ريـدا" ومَنْ حولهـا "حازم" و"جميل" و"رأفت" :

- حمد لله على سلامتك.

كنتُ نائماً.

أعتدل فتقابلني على الجدار سـاعة حائط ، شـبيهة بتلك التي رأيتهـا عند الدكتور "عبد اللطيـف"، لكن هذه مينائها أسود، يبدو أن "كامل" أحضرها أثناء غفوتي، لكن أليس غريباً أن تحتلَّ ذات المكان الذي كانت تجلس فيه الكمان منذ قليل؟

أندهش حينما أجدها تشـير إلى العـاشرة صباحاً ، أطلتُ النوم أمس بصورة غير معتادة.

- سرحان في ايه يا فنان؟

يسألني حازم فأعانقه : وحشتوني ..

انت كمان وحشتنا جدا. يعانقونني جماعةً وهم يقولونها

في صوت واحـد بينما يضيـف "رأفت": هـات رجلك خلينا نكتب لك ذكريات على الجبس، الدكاترة منعونا واحنا بنزورك نشخبط.

ويُخرج قلماً، ويبدأ في كتابة كلمات شديدة الإيلام.

"حادثة تفوت ولا حد يموت" ..

يضحكون ، بينما أزوغ أنا مع المعنى، "فعلا ولا حد يموت"

تربت "ريدا" على كتفي وتميل بوجهها الجميل نحوي ...

- انت كويس؟

أشـعر بالأمان حينما يحجب شـعرها المتهدل نور النهار، المتسلل من النافذة التي يفتحها "حازم"، وأقول بارتياب :

- آه

- حاساك متغير، كأن في حاجة مزعلاك ؟ حتى صلاح كلمني وقلقان عليك.

- لا ألم الكسر بس.

- طيـب ايـه رأيك الليلـة عندنا حفلة في السـاقية تحب تيجي؟

- أوسـد جبهتي لكفي كي أهرب من عينيها وأقول: خليني

لما أخف أحسن.

- دي حفلة دخلها هيكون دخلها لمستشفى 57357، علشان خاطري تعالى معانا.

- واحشني نعمل دويتو اللقا التاني، بين البيانو والكمان يا نبيل.

- وانا كمان يا جميل واحشني قوي.

- طيب هاتيجي؟

فأبتسم وأقول: حاضر هاجي.

تصرخ "ريدا" فرحة ويهللون جميعاً لموافقتي ، نتسامر قليلاً ثم يغادرونني لأختلي بالحقيقة.

الموت حقيقة تائهة بين أكاذيب البشر.

أشعُر بوحشة غريبة، كأن روحي لازالت تتعرَّف إلى جسدي، أظن أن العودة من غيبوبة طويلة تشبه إلى حد كبير العودة من الموت.

- آه، صداع رهيب.

أقوم لأدفع باب الخزانة لتبديل ملابسي، ينزلق إلى مجراه كاشفاً عن المرآة التي تبيت خلفه ، أستغرب حينما أرى

هيئتي الجديدة، رأسي الحليق وجسدي الذي نحل، عيناي الجاحظتان والهالة السوداء التي تحيطهما، ملامح تجعل مني شبحاً مخيفاً لرجل لا أعرفه، أو ربما هناك من ينظر إلى نفسه في المرآة وأنا مجرد انعكاسه، أظن أن هذا يصفني إلى حد كبير، أنا أعيش داخل تلك المساحة الفاصلة بين نفسي وأبي، بين ما أنا عليه الآن وما كان يريدني أن أكونه، أنا ببساطة صورته المشوَّهة المنكسرة، حتى أنني أراه الآن من خلف كتفي، يقف تحت الساعة يوبخني:

- هتعيش وتموت بليد وفاشل.

يقولها بينما يَبرم ترس التاريخ البارز على إطارها، يضبطها على تاريخ مَّا، كأنه يتدخل في تحديد أجلي، أحاول قراءته لكن الصداع يهاجمني فجأة، يشوش بصري ويعجزني عن استيضاح أيِّ رقم، بالكاد ألمح إصبعه يدير عقرب الساعات، فأسمع خمس دقات متتالية، كأنها أجراس كنيسة بعيدة، يشتد معها الألم والصداع، يتشوَّه المشهد تماماً، أتِيهُ في غيمة ضباب كثيفة، لا ينجيني منها إلاَّ أن أهرع إلى الحمّام وأضع رأسي تحت سيل الماء. تصدمني برودته كأشد ما يكون، حتى أن عينيَّ تنفتحان على اتساعهما وأشعر أن عروقهما تتصلب، لكني أُتحمل وأنتظر حالماً أستفيق تماماً ، فأخرج من الحمام وأجفف رأسي بينما بداخلي تتكون أفكار مظلمة، لا يمكن أن

أمـوت قبل أن أهزم أبي، حتى لو تطلب الأمر أن أهدم كل ما بناه، لكن كيف؟

أصل إلى فكـرة جنونيَّة في غضون دقائـقَ قليلة فأخطف الـ iPhone ومحفظتي والمفاتيح، وأغادر لأسـتقلَّ سيارتي الـ Jeep، متَّجهاً صوبَ شارع محمد علي.

أغرق داخل مقصورة السـيّارة، في شـجن موسيقى اللقاء الثاني لعمر خيرت، فتبدو مشاهد الحياة حُلماً سريالياً غريباً.

أتذكر كلمات الشـاعر "سيد حجاب" القاسية على نفسي : "أحلى سنين العمر بينا تمُر، يا نعيش هوانا .. هوانا .. حلم ليلة صيف، يا تتوه خطانا في ليل شتانا المر"،

أردِّدها بإحساس رهيف ، أرددها حتى أصِلَ وجهتي.

***

- 3 -

"ورشة خليل نصيف لإصلاح الآلات الموسيقية" ...

على بُعد متر من هذه اللوحة أوقف سيارتي وأهبط بقدمي المجبّرة في حـذر، يلفت منظرها انتبـاه رواد المقهى المجاور، لدرجـة أنَّ أحدهـم يتوقف فجأة عن رشـف كوب الشـاي المسـتقر بين يديه، لكني لا أهتم ، أتوكأ عكازي وأتحرك ببطء لأمر من تحت اللوحة إلى دواخل الورشة العتيقة.

كعادتـه يجلـس الأشـيب المُعمِّر "خليـل نصيف" خلف مكتبه، على اليمين من الورشـة، ومن فوق رأسـه تتدلى ثلاث آلات معلقة على الترتيب ، جيتار.. عود.. كمان ، مدليًا نظارته إلى أرنبة أنفه، وظهره محنيّ نحو كمان مسـتقر على ركبتيه، يحـاول "خليل" شـدَّ وتـر ال "c" بعد أن دككـه ومرره من فوق المشط ، لكني أرى أصابعه ترتعش بشكل يستحيل معه السـيطرة على الوتر، الوتر كالفرس إن شعر بضعف شخصية فارسـه جمح وعصى، وما أراه هو أن أصابع "خليل" العجوزة تخونه، حتى الإصرار الذي يرتسم على ملامحه وهو يشد الوتر بعـزم لا يلبـث أن يلين مهزوماً مع ارتخائـه بين أصابعه حين يفشـل، أتوقع منه أن ييأس سريعاً، لكنه يُخلِفُ ظني ويُعَدِّل من وضع الكمان، يمسكها بين فخذيه موجِّهاً عنقها لأعلى، قبل

أن يشرع في لف الوتر على المفتاح، وإدارته بروية ليشتد فوق العنق، رغم ذلك لا تسير الأمور معه على نحو طيِّب، ينقطع الوتر فجأة مُصدراً رنة فشل، تضطرب معها عضلات وجهه، كأن إبرة وخزتها.

يؤسفني أن أراه ضعيفاً هكذا، "خليل" كان أبرع آلاتي في مصر، لكن يبدو أن المهارة تنتحر في صاحبها، حينما تستشعر نهايته.

أتدخَّل لأُسرِّيَ عنه: مساء الخير يا أستاذ.

يمسحني بنظره تفحصية من فوق عدسات نظارته، ثم يقوم ليصافحني حينما يستدل على ملامحي:

- نبيل ازيك يا فنان. ويستدرك بضحكة قصيرة مرتبكة:

- معلش بقى انت أن عارف الأوتار الأيام دي كلها صيني مبتتحملش.

- ولا يهمك يا ارتست يا كبير.

تتسع ابتسامته مع إطرائي ويقول: بحب اللقب ده قوي، عارف مين أول واحد وصفني بيه؟

ورغم أنني أعرف، أتركه يستطرد في حماس :

- العظيم فريد الاطرش، كنت دايما أظبط له شدة العود، ومكنش يطمن لحد غيري، شايف العود المكسور اللي هناك ده.

ويشير بأصبعه إلى أنتيك معلق وسط مجموعة من القطع الموسيقيَّة وصور بالفحم للمطربين، ويُردف : ده عوده اللي انكسر في فيلم "عنان".

ينتبه فجأة إلى أنني أستند إلى عكاز من الحديد وحول قدمي جبيرة ، فيزيد من انحناءة ظهره ، ويشير بذراعه يدعوني للجلوس:

- اتفضل اقعد معلش العتب على النظر.

نجلس إلى مقعدين من الأرابيسك بينما أقول:

- انا مش هعطلك، أنا عايز منك طلب وعارف إنك تقدر عليه.

- اتفضل يا فنان.

- عايز وتر ميتقطعش.

يرفع النظارة عن أنفه ، ويفرك عينيه قبل أن يعترض :

- مفيش وتر مبيتقطعش، الوتر له عمر، ولازم تيجيله

لحظة ينتهي فيها، واللحظة دي بنعرفها لما الوتر يبدأ ينشــذ، فبنديله الشَدة الأخيرة.

تُوجعني كلماته، لكني أتماسك وأقول: أنا عارف إنك تقدر تعمله وكمان محتاجه بكرة بالكتير.

يستوقفني مُشيراً بكفَّيه، وعائداً برأسه الأصلع للوراء:

- على مهلك عليا يا فنان انا راجل عجوز وصحتي مش زي الأول، وتر زي ده حتى لو قدرت أعمله هياخد مني وقت.

- أنا واثق إنك تقدر تنجزه في ليلة.

يضحك في جذل وتزوغ عينه البُنية بعيداً ، كأنه يستحضر ذكرى نجاحات قديمة ، بينما أمُدُّ له يدي بمبلغ من المال: اتفضل دول ألفين جنيه.

- لكن ده كتير!

- معلش، علشان تقدر تتحرك بسرعة.

- أنا هعمل كل اللي أقدر عليه.

وألمح لمْعَة ثقة تتوهَّج كشهاب داخل عينيه، فأفهم أنه قد عقد العزم على استعادة نجاحه القديم .

أغادره إلى سيارتي فيأتيني اتصال هام، أردُّ مُرَحِباً بالمتصلة

وأسألها :

- ها طمنيني أيه الأخبار؟

- أنا موافقة.

نتحاور قليلاً ثم أنهي الاتصال وأتجه من فوري إلى بنك HSBC ، اتخذت قراراً آخرَ بشأن الثروة التي ورثتها عن أبي بعفوية تامة ، فقط أهملت كل أفعال الخير التي كان يقوم بها، فوجدت الحل يتشكل من أمامي واضحاً جليًّا، صحيح أنه ماله وهذا أكرهه بشدة ، لكنه يبقى خياري الوحيد.

أكتشف فجأة أنني أقترب من مكتب موظفة خدمة كبار العملاء ، لا أدري متى هبطتُ من السيارة ، ولا متى دخلتُ، كنتُ شارداً تماماً.

تصافحني بابتسامة رسميَّة ، تشترك مع قميصها الأحمر المحبوك، وشعرها الكيرلِ وكذلك تنورتها السوداء القصيرة في منحها جمالاً ممزوجاً بالكثير من الوقار، أسند عكازي إلى ظهر الكرسيّ ، وأجلس قبالة مكتبها الأبيض في تأنٍ ، بينما تبسط هي كفَّها تدعوني لاتخاذ أي وضع مريح.

- ارتاح يا أفندم.

نرمين كمال، "خدمة تميز"، هكذا يشير اسمها المكتوب

بالأحمر، على الدبوس الأسود، المعلق في جيب قميصها.

- أقدر اخدمك حضرتك ازاي؟

أمرر لها بطاقة حسابي قائلاً : عايز أعمل ارتباط مالي من حسابي لحساب مستفيد تاني.

تلتقط البطاقة، وتضعها أمامها على طرف لوحة المفاتيح، ثم تضرب أرقام الحساب ، وتنشغل في متابعة ما تعرضه الشاشة اللازوردية.

ملامحها الجميلة وتعبيراتها المُهتمة تذكرني بإصرار "ريدا" وجديتها، حتى أنها تفوح بذات العطر الذي تضعه، والذي كانت أمي تستخدمه من قبلهما، "لانكوم".

تدير وجهها لي بابتسامة واسعة ، فأرتبك وأسقط بصري ناحية قدمي ...

- نبيل مصطفى نبيل الليثي، حسابك حضرتك مُفعّل تقدر تجري أي عمليه انت حابباها، اتفضل.

- ده رقم الحساب التاني.

وأمرر لها قصاصة تحمل بيانات المستفيد الآخر، فتلتقطها وتنقلها على لوحة المفاتيح ، من دون أن تنظر لها ، وأعود

لأتابعها وهي تمسح النتائج بعينيها في اهتمام ، بينما وهج الشاشة ينعكس على قسَمَاتها الجميلة، وتعود لتكلمني فور أن تتأكد:

- تمام والحساب ده كمان مفعل كده نقدر ننفذ الارتباط .

وبأسلوب رصين تُخرج لي من أحد أدراج مكتبها استمارة تحمل شعار البنك ، وتضع فوقها قلماً أنيقاً ، تدعوني لاستخدامه:

-اتفضل حضرتك سجل بيانات المستفيد وبياناتك.

أملأ جميع بياناتها ثم أوقعها وأسحبها بسبابتي وإبهامي على سطح المكتب لأقربها منها. تندهش حينما تشاهد خانة مبلغ الارتباط ، تسكت لبرهة ، كأنها تحاول أن تستوعب الموقف : 20 مليون جنيه؟! تنقر بالماوس مرتين ، وتركز في قراءة ما تعرضه الشاشة ، ثم تعود فتقول: ده نص الرصيد تقريباً، حضرتك متأكد من المبلغ المكتوب؟

- أكيد.

- في الحالة دي لازم أخد موافقة مدير البنك ، أنا آسفة المبلغ أكبر من صلاحياتي .

أومئ لها برأسي موافقاً، فتمنحني ابتسامة مضمومة

الشـفتين ، وتتحرك في نشـاط لإنجاز كل الموافقات المطلوبة، تسـتغرق قرابة النصف سـاعة قبل أن تعود لي باسـتمارات الموافقة كي أعتمدها ، ومع آخر توقيع أستأذنها: ممكن طلب كمان؟

- في خدمة حضرتك.

أمرر لها ثلاثة شيكات ، كنتُ قد حرَّرتُها سالفاً ، وأستكمل:

- عايـز أتأكد من صحة توقيعي على الشـيكات دي، مش عايز يكون فيه أي مجال لرفضها في المستقبل.

تدققهـم واحداً تلـو الآخـر، مقارنة بين التوقيـع المحرر بالشـيك، والآخر المسـجل داخل النظام الإلكـتروني ، قبل أن تعيدهما لي ، بإيماءة واثقة مؤكدة : التوقيع سـليم والشيكات مظبوطة.

- أشكرك جدا.

- تحت أمرك.

أهمُّ بالمغادرة ، لكنها تستوقفني مشيرة بأصبعها: في عندي حاجه في السيستم، المفروض كنت حضرتك تشوفها من فترة.

أسألها مضيقاً عيني : خير؟

- وديعة باسم حضرتك، أودعها لك مصطفى الليثي، يعني والدك، المفروض ان ميعاد فتحها يكون خلال سـنة من وفاته ودلوقتي مر تقريبا سنة، تحب حضرتك تشوفها؟

أضطـرب وتتدافع دقـات قلبي، يتمـدَّد قلبي كأضخم ما يكون ويتقلص كأصغر ما يكون ، كأنني مقبل على أمر خطير، "صلاح" حدثني عن تلك الوديعة كثيراً، طلب مني أن أفتحها أكـثر من خمس مرات ، مبرراً أنها آخـر وصايا أبي، فلماذا؟ ما المهم بشـأنها؟ ما الذي تحمله من أسرار؟ فضولي يدفعني أن أفتحها، لكن هواجسي تمنعني بكل ما فيها من خوف ونكران، بالنهاية أسـتجيب لنذير الخوف المتصاعد في نفسي، وأسحب عكازي لأعتمد عليه في أن أقوم، أقول لها:

- لا أفضل اشوفها بعدين.

تقـوم وتلف حول مكتبها بأقصى سرعة يسـمح بها كعب حذائها ، باسـطة يدها لأعتمد عليهـا ، أتأمل كفها الممدودة لي، تبدو كأنها جسر يقودني إلى روحها، أرفع رأسي لها فتتقابل نظراتنا، تربكني عيناها السـوداوان كأشـد مـا يكون، فيهما ابتسـامة حيـاء تلخص أجمل مـا في الحياة، أتـردد في قبول مسـاعدتها بينما يدها الممدودة تحرجني، بالأخير أسـتند إلى كفها وأقوم، لكني بمجرد أن أستقيم أسحب يدي فوراً وأغادر

في لا مبالاة ، يصيبها اندهاش كبير من تصرفي، ألحظه في اتساع عينيها واستدارتها البطيئة، لكني أتفهمه، هي لا تعرف أن دفء لمستها كان بمثابة لسعة تحذرني أن أتعلق بشيء من تلك الحياة، رأيت الموت لحظتها من خلف زجاج البنك، يتعجلني مشيراً إلى قرص ساعته، كأي سائق تاكسي ملول ، لذلك وبمجرد أن أغادر البنك وتحتويني سيارتي أعود للتفكير في واقعي المظلم، ألتقط الشيك الأول وأرفعه أمام عيني لأقرأ بياناته، المبلغ: 5 مليون جنيه، اسم المستفيد:

" الدكتور جلال عبد القادر"،

طبيب بيطري.

***

- 4 -

تفترق دفتا المصعد لتقابلني اللوحة البيضاء التي تحمل اسمه وتخصصه، بالدور الأول من عمارة الأطباء العتيقة بشارع الحرية، أتخطى الممر إلى العيادة، وأرتكز على العكاز، فأدفع الباب في هدوء لأدخل.

لازالت العيادة على حالها منذ آخر مرة زُرتُها فيها، كنب متهالك وموكيت أخضر مترب، ومكاتب معدنية عتيقة طلاؤها مقشر.

يستقبلني مساعده "سميح" بترحاب بشُوش ، سرعان ما يتلاشى فورَ أن يلحظ حالتي:

- أهلا وسهلا يا أستاذ نبيل وألف سلامة عليك.

- ازيك يا حاج سميح، كويس إنك لسه فاكرني.

- طبعا فاكرك يا بني أبوك كان عزيز وغالي وانت عزيز وغالي.

أتجاوز إطرائه وأسأل: الدكتور موجود؟

- آه بس في المعمل، تحب تنتظره هنا ولا أسـ ..

يعرض أن يصحبني إلى الداخل، لكني أستوقفه بإشارة من كفي الأيمن، فيما أواصل توكُّؤ عكازي إلى المعمل.

أول مـا يلفت نظـري حين أدخل لوحة مرسـومة بمنظور محـدب لمُهر رمادي يقف وحيـداً ومنبـوذاً في زاوية ميدان الرَمَـح، ملامسـها الأرجوانية المنسـحبة عـلى أغلب ضربات الفرشـاة تباغت ودائع ذاكرتي، تحقـن فجيعتي بدفقة إحياء مركزة ، لكنّي أبتر أيَّ إرهاصات قد تجرني لألمي القديم ، أنقل بصري سريعاً إلى الدكتور "جلال" ، صديق أبي الصدوق، والذي ظلَّ يساعده في الاعتناء بخيول المربط حتى وفاته:

- مساء الخير يا دكتور جلال.

يرفع رأسه عن الميكروسكوب ليجدني أقف عند الباب:

- نبيل! ازيك يا بني.

وبرفق يرفع الشريحة ويعيدها إلى حافظتها، قبل أن يدور حول طاولات المعمل البيضـاء ، المُتخمة بالأنابيب والعبوات الزجاجية ليستقبلني .

ملامح الدكتور "جلال" تشبهني إلى حد كبير، وجهه مكتظ، زواياه حادَّة ، وشـعره أشـقرُ ناعم ، الفارق الوحيد بيننا تلك

التجاعيد التي خدَّدها الزمن حول قسماته.

- من يوم وفاة والدك رحمة الله عليه، متقابلاناش و..

يصدمه أن يراني أسـتند إلى عكاز وقدمي مكسورة ، أفهم ذلك من تضييقه لحدقتيه العسـليتين وسقوط فكه العريض ، لكنه لا يطيل حالة الانقباض تلك، ويسألني فوراً: خير إيه اللي حصل لك ألف سلامة عليك؟

- الفرس رجلة انكسرت يا دكتور.

أقولهـا بنـبرة تهكميَّة، ويفهم ما أعنيه ، فيعترض مشـيحاً بذراعه: يا راجل حرام عليك متقولش كده ان شـاء الله تبقى كويس، اقعد، اقعد.

يُجلسني على كرسي وثير من الجلد ، ثم يجذب آخَرَ لا ظهرَ له ويجلس أمامي:

- انا معرفش والله بالحكاية دي والا كنت زرتك، وانت من يوم وفاة والدك لا زرتني ولا أعرف عنك حاجه.

ينتبه فجأة إلى أن الكسر حاصل لقدمي اليسرى، فيعود إلى حالة الجزع : ايه ده هو الكسر في رجلك الشـمال، مش تخلي بالك على نفسك يا ابني.

- أنا عملت حادثة.

- حادثة؟!! وازاي محدش يقولي حاجه زي دي؟

- مفيش حد كان عارف.

يسكت قليلاً كأنه يتجاوز إحساس الأسف ، ثم يعود فيقول:

- عموما حمد لله على سلامتك، الحياة على كده وكده يوم حلو ويوم مر.

- انـا مدقتش منهـا غير المُرّ يا دكتـور، لحد مبقتش حتى أعرف أميز طعمه.

يميـل بوجهه ليواجهنـي معارضاً: يبني الحيـاة لما بتقسي عـلى حد بجد، مبيعرفش حتى يشـتكي، روحـه بتتخنق لحد ما تموت، وانت دايما مش شـايف نعـم ربنا عليك، انت غني وعندك هواية بتحبها وشاب مهذب واخلاقك عالية ودي كلها نعم لازم تحمد ربنا عليها.

- اعمل بكل الحاجات دي ايه دكتور؟

-تعيش حياتك تسعد نفسك وغيرك.

- أنا مليش حد، أنا لو فيه حد في الدنيا دي مستنيني، كنت

هقاوم المرض والحزن والفشـل، صحيـح هي حاجات صعب تتقـاوم لكن احسـاسي ان بعمل ده علشـانه، كان هيخليني أمسك بأي فرصة ولو ضعيفة علشان أكون معاه.

- ومين قالك مفيش؟ مش يمكن انت اللي رافض حد يقرب منك؟

أهـرب من مواجهته إلى نافذة المعمل ، أريد أن أصرخ فيه بأن كلّ هذا سراب ، أطلق بصري في السماء المفتوحة كي أطفئ جمر سـخطي في برودة السـحب المتكثفة على مرآة السماء ، أسرح في تشـكيلاتها قليلاً ، كيـف تتعانق ثم تفترق ، قبل أن أمالك نفسي وأعود لأمد يدي له بالشيك :

- اتفضل.

يتناوله ويقرأه سريعاً فتُباعِد الدهشة بين قسَمَاتِه :

- ايه كل المبلغ ده؟ وليه؟

- علشان اللي حصل ميتكررش.

- ليه مش قادر تنسى الموضوع ده يا ابني؟

- اللي حصل ميتنسيش يا دكتور.

- طيب انت عايزني أعمل ايه بالفلوس دي كلها؟

- عايزك تشوف حل.

- طيب ليه جيتلي ومرحتش لشركة والدك؟

- مش عايز حد هناك يعرف، ومفيش حد فيهم هيفهم ولا هيهتم ده غير ان عندي ثقة انك الوحيد اللي هيقدر يلاقي الحل.

يطوي الشيك ويحاول أن يعيده إليّ:

- مهما وصلنا من علم مش هنقدر نعارض قدر ربنا.

- العلم بيتقدم كل يوم.

- يبني الموت ملوش علاج.

أقبض على يده التي تمسك بالشيك وأنظر في عينيه وأقول:

- لكن المرض له.

يتخلّص من زفرة طويلة ثم يُربِّت على قبضتي ويسحب يده قائلاً :

- طيب انا هاخد الفلوس بس بشرط.

- ايه هو؟

- والدك الله يرحمه أوصاني على سرير موته، إني أتأكد إنك فتحت الوديعة اللي سابهالك في البنك، وانا لما سألت صلاح من فترة قالي انك مفتحتهاش.

أستنكر طلبه : يا دكتور انا مش ناقص فلوس ؟

- ومين قال لك إنها فلوس!، مش يمكن حاجة أهم؟

- طيب لو فتحتها تنفذلي طلبي؟

- أوعدك.

- أشكرك يا دكتور، حضرتك بجد ريحت قلبي.

أقوم مستنداً إلى عكّازي ويعاونني لأقف فأُمسك بذراعهِ وأقول نافذاً ببصري إلى عينيه :

- أوعدني إنك توصل لحل يا دكتور.

يُطبق جفنيه ويفتحهما دليلاً على الموافقة ، فأطمئن وأغادره، لكن دون أن تغادرني صورة الجواد ، أهبِط إلى مدخل العِمارة تصاحبني دقّات عكازي على بلاطها المصقول ، لكن الأرض سرعان ما تلين من تحت قدمي ، حينما أحس بحفيف

عشـب ندي يداعب خطواتي، وأنا أسير في غماره ممسكاً بيد أمي.

- بابا عايزك تبقى فارس يا نبيل، علشـان كده طلب مني أجيبك المربـط تختار مُهر يبقى صاحبك، وتتعلم الفروسـية عليه.

أسألها باندهاش طفل برئ ، لم يتجاوز العاشرة من عمره:

- أختار أي مهر انا عايزه؟

- أه يا حبيبي، أي مهر قلبك يحبه.

تمتلـئ نفسي بالنشـوة والفرحة بينما أمـشي إلى جوارها ، نقطـع الممشى الرمليّ المُفضِي من الكوخ الخشـبيّ إلى ميدان رمـح الخيول . هواء الشـتاء المنعش المُعبّق برائحة العشـب يجوب المساحات الخضراء الممتدة فيلاعب شعري ويطير ثوب أمي ، تمتلئ نفسي بالأمان مع حفيف ثوبها لجسدي فأتشجع وأطلب: ينفع نعيش هنا على طول يا ماما؟

تضحك أمي ضحكة رائقة ، مجيبة: لا طبعا يا حبيبي ، لكن أوعدك نيجي هنا كل أسبوع ، بشرط انك تجتهد في دراستك.

نصـل إلى الميـدان ، فأترك يدها وأجـري لأنفذ برأسي بين

العوارض الخشبية من أجل أن أراقب الخيول ، تعجبني كلها، لكـن يلفتني ذلك المُهر الأصيل الواقف عند الزاوية البعيدة ، شيء فيه يخطفني من أول نظرة ، ربما رأسه الصغير ذو الخطم الأسـود والعينـان الكحيلتـان طويلتا الرموش ، وربما شـعره الأسـود الطويل المتهدل على عنقه المقوس ، أو بدنه الرمادي المنقوش ببقع داكنة تنسـحب عند خصره ... لا أدري! لا أجد سـبباً واضحاً يجعلني أحبه بهذه السرعة ، غير أنه حينما يبدأ في التحرك أفهم ، المُهر يعرج في مشـيته بشـكل بائس ، ساقه الأماميـة اليمنى أقصر من أختها ، أفهم حينها لماذا هو منبوذ بـين القطيـع ، كلما اقترب من أحد الخيول رفسـه ، أو دفعه برأسـه في بطنه ليبتعد ، يؤلمني أن أراه يتعثر ويسقط ، لكنّي أعود وأنشرح حينما أراه يعتمد على ركبته اليسرى ويقوم.

- ها اخترت أي مُهر فيهم يا نبيل؟

أتعلق بالعارضة الغليظـة ، وأهتف بحماس: اخترت المُهر ده يا أمي.

تطوق كتفـي بذراعها وتميل لتسـألني: أي واحد فيهم يا حبيبي؟

أشير إليه بسبابتي فارداً ذراعي عن آخره وشابّاً على أطراف

قدمي :

- اللي واقف لوحده في الآخر.

وتفهم أمي مَنْ أقصد ، فيبدو على ملامحها التوتر وهي تغمغم : قصدك قمر.

أنط على الأرض فرحاً : اسمه قمر؟ الله اسمه جميل قوي.

- أنت حبيته؟

- قوي يا ماما.

- ليه؟

- علشان هأعرف أكون فارس عليه.

تنظر إلى شيءٍ ما خلفيّ وتقول مضطربة: طيب مابلاش المُهر ده اختار واحد تاني.

- أركل الأرض معانداً : لا أنا اخترت ده.

- بابا عايزك تختار مهر قوي، وقمر ضعيف.

- قمر مش ضعيف، قمر طيب.

تحتضن وجهي بين كفيها وتنظر في عيني هامسة: حبيبي

بكرة لما تكبر هتكون فارس زي بابا و...

تقطع كلامها وتنظر لشيءٍ ما وراء ظهري فألتفت لأجد أبي يسألني بينما يصور كل شيء بكاميرا الفيديو، التي لا تفارقه إلاّ نادراً :

- ها اخترت أي مهر؟

***

- 5 -

قُبالة صورة أبي أجلس على كنبة صالون دكتورة "نسرين" ، ماداً ذراعي لها بالشيك ، تلتقطه وتقرأه فترفع حاجبها الأيسر الرفيع كعادتها قبل أن تسألني :

- ايه ده يا نبيل؟

- ده ورث حضرتك يا دكتورة.

تضعه أمامي على الطاولة الزجاجية وتنظر في عيني قائلة:

- انـت عايـز تقطع علاقتـك بيا مش كـده؟ بتديلي ورثي علشان ميبقاش فيه حاجه تربطنا ببعض ؟

- لا مقصدش.

- أومال إيه ده؟

- من حقك تاخدي ورثك، على الأقل يبقى تعويض بسـيط عن الأيام الصعبة اللي عشتيها مع بابا.

- تنظر إلى صورة أبي المُعلَّقة وتقول:

- مين قال إني عشت مع مصطفى أيام صعبة؟

- مش كنتي بتشتكي منه دايما؟

تضحـك قائلة : هو فيه سـت مش بتشـتكي من جوزها؟ الست مع جوزها زي اليوم اللي بتعدي عليها الفصول الأربعة، ممكـن تزعل منه وتصالحه وتتخانق معاه وتحضنه كل ده في يوم واحد. ثم تستدرك :

- قـولي يا نبيل، انت عمرك تعرف ان حد بيكره حد يعلق صورته؟

أتحاشى النظر لعينيها العسليتين الثاقبتين وأقول:

- مش عارف.

ترفع رأسَها إلى صورة أبي ، فتتأملها كأنها تستعيد ذكرياتها معه:

- يا نبيل انا عشت مع مصطفى أجمل أيام حياتي، مصطفى مكنش بس زميلي في هيئة التدريس كان أخويا قبل ما اتجوزه وحبيبي بعد ما اتجوزته، طول عمره كان انسان محترم وقوي والست تحب الانسان القوي.

- قصدك الناجح؟

- مش شرط يكون الراجل ناجح علشـان يعجب السـت، ده ممكن يكون متشرد وبوهيمي وتموت فيه، السـت تحب الراجـل اللي تحس جنبه إنها ضله، يحميها من حر الدنيا لكن

وقت مـا يتعب بيجي يرتـاح عندها. ومصطفـى كان كده. تعرف! حتى لما كان بيفتكر مامتك الله يرحمها، كنت بشوفه يعيط علشـانها، وكنـت بغير وبضايق بـس غصب عني من جوايا كنت بحترمه.

- يبقى عمرك ما عرفتيه كويس

تستدير وتواجهني:

- مفيـش حـد ممكن يعـرف الراجل اكتر مـن مراته، أنا عارفه مشـكلتك معاه كويس، ومكنتش راضيه عن أسلوبه في معاملتك، وحاولت كتير اخليـه يغير طريقته وانت عارف انا كنت بقف معاك ضـده ازاي، خصوصا في حكاية إصراره على حرمانـك من الصور والفيديوهات الـلي كان بيصورهالك مع أمك، بس واضـح ان ده خلاك تفهم الموقف غلط ، مصطفى كان دايمـا متصور ان الضعف اختيـار، عمره ما اقتنع بحاجة اسمها ضعف ، حتى لما كان بيمرض كان بينزل الشغل وعمره ما استسلم ورقد في السرير، علشان كده طبيعي انه لما يشوف ابنه الوحيد ضعيف ده يخليه دايما مخنوق وعصبي، لكن ده مش معناه ان دي طبيعته.

وتستطرد :

- شيل الفلوس دي يا نبيل وعيب قوي لما تيجي تديني تمن

وفـوفي جنبك، أنا دايما بعتبرك ابنـي، رغم إني عارفه انك دايما بارفض ده، علشـان كده سـايباك على راحتـك ومتحمله انك تعـدني لاني برده محترمه علاقتك بأمـك الله يرحمها ولنفس السـبب محبتش أعيش معـاك في الفيلا وجيت هنا شـقتي في المعـادي، ووجعني قوي انك تبقى مريـض وعامل حادثة وفي غيبوبـة ولما تخرج ماتقوليش. بـس على العموم انا مش معاتبك لاني مبحبش العتاب.

- يعني مش هتاخدي الشيك.

تحرك رأسَـها يميناً ويساراً في رفض عنيد ، فأفهم أنَّه قرارُها النهائيّ، فألتقطه وأغادر.

رغم ذلك ، أعود إلى البنك لأودع لها المبلغ في حسابها.

***

- 6 -

يحل المساء فأذهب إلى الساقية متأخراً كعادتي ، أدخل إلى الممر المفضي للكواليس فتتنامى إلى مسامعي أصوات متداخلة للوتريات ، تتردَّد عشوائيًّا مع تجريب العازفين لها ، أنا الوحيد الذي لا يجري أي تجربة ، يقول "جميل" عني أن أصابعي تجيد العزف أبرع مما تجيد الكتابة ، لكنه يتحرج بذات الوقت أن يصارحني بأنني مجرد مقلد لا مبدع .

أدخل متوكأً عكازي ومتأبطاً الكمان ، فتقابلني "ريدا" بفستانها الأحمر المتوهج، وكعادتها مغمضة عينيها وفي حالة هيام ، تفعل "ريدا" ذلك دائماً حينما تجرب صوتها ، تلفت نظري لآلئ عقدها فأتساءل : لماذا لا أجدها تلمع مثل ذي قبل؟! أليست سعيدة ؟ كونها تدور حول عنق نجمة مثل "ريدا"، تستمتع بدفء الحياة المنسابة فيه؟ وتلمع معه تحت وهج الثُريَّات وبريق الأضواء؟ إن كانت كذلك، فلِمَ أراها تبهت يوماً بعد يوم، ينطفئ لون الحياة فيها ؟ ربما هي لم تكن تريد من هذا العالم إلا العزلة ، إلا وشيش السُكُون ولحن البحر، لم تكن تريد سوى الإحساس بالأمان بين أحضان محارتها المجعدة ، المحارة التي استكثرنا على خشونتها أن تحتضن لؤلؤة ناعمة فحرمناها منها، لم نفهم أبداً معنى احتياج اللؤلؤة للأمان ولا احتياج المحارة للعطاء فقضينا على

كليهما بالموت ، تماماً مثلما حدث لي ولأمي حرمتنا الحياة من الأمان فانطفأت أرواحنا.

أفيق من أفكاري مع قفزة في الهواء تصحبها تصفيقة فرح طفولية من "ريدا"، وأبتسم حينما أسمع صفير "رأفت" وتحية "جميل" المعهودة وهو يمرر أنامله عرضيًا على كل مفاتيح البيانو، وكذلك ترحيب "حازم" .

- حمد لله على سلامتك يا فنان.

- ايوه بقى ارجع نور الدنيا يا نبيل أفندي.

- تصدق شكلك أحلى في الجبس.

يتجمَّعون من حولي وتمنحني "ريدا" عناقاً سريعاً ، ثم تعاونني على الجلوس على كرسي عجل ، كان "صلاح" قد أحضره بناءً على طلب مني ، لأتمكن من حضور العرض.

أدخل المسرح مع باقي أعضاء الفرقة فيرتجُّ بالتصفيق الحاد، لكن هذه المرة ليس فقط لمجرد طلتنا ، بل لظهوري على الكرسيّ مدفوعا من "ريدا"، البعض يعتبر الضعف تضحية، والتضحية من أجل الإبداع بطولة ، لا يفهمون أنني لا أصلح بطلاً ، فالأبطال لا يموتون ، الأبطال يتركون دائماً ما يخلدهم في نفوس البشر.

تتخذ الفرقة وضع الاستعداد ويبادر الجمهور بالصمت ، فأضع الكمان على كتفي وأستعد ، سنعزف لحن "يا مسافر وحدك" لعبد الوهاب.

يبدأ "رأفت" بالعزف على العود مع مزيج رائق للقانون يستمر لنصف دقيقة كاملة ، يتوقف بعدها العزف مفسحاً المجالَ لدخول غاية في العذوبة لصوت "ريدا": "يا مسافر وحدك ... يا مسافر وحدك ... وفايتني ... ليه تبعد عني ... ليه تبعد عني ... وتشغلني" ، تعود أصابع "رأفت" لتداعب أوتار العود بروعة تفوق الوصف ، قبل أن يدخل "جميل" بالبيانو، ويستمر المزيج لنصف دقيقة أخرى: " ودعني ... من غير ما تسلم ... وكفاية قلبي أنا مسلم " ، تسكت "ريدا" فيأتي دوري مع ملكة الوتريات ، الكمان ، أعزف اللحن في اللحظة التي تقول فيها "ريدا" : " دي عينيا دموعها، دموعها بتتكلم" ، فأعجز عن أن أتمالك نفسي، تفيض دموعي حتى أراها تنفرط فوق الكمان وترتطم بالأوتار، حتى لم أعد أرى شيئاً ، الأضواء ذابت في بئري عيني تماماً والملامح! لا ملامح، سامحوني ، سأسافر وحدي وأدعكم ، سامحني يا "رأفت" سامحني يا "جميل" سامحني يا "حازم" سامحيني يا "ريدا" لن أودعكم، لا أجرؤ أن أعذبكم، سامحوني جميعاً ، يكفيني من هذه الدنيا أنني لم أنَلْ منها أيَّ شيء، لا نجاح ولا دفء

ولا حب، ولا شيء! أودعكم بلا ولا كلمة بلا ولا تلميح بلا ولا إشارة، أودعكم وقلبي ينفطر وجعاً على فراقكم ، أودعكم وجُلُّ ما أتمناه أن تذكروني، أودعكم بعيني ، فقط بعيني .

"دي عينيا دموعها، دموعها بتتكلم" ..

***

- 7 -

حينما يكون المتبقي لك في هذه الحياة بضع ساعات ، هل يمكنـك أن تنام؟ أهبط بعينين جافاهـما النوم، متوكأ عكازي وقاصدًا الحديقة الخلفية للفيلا، في منتصف طريقي إلى الباب المفـضي إليها ، يعترضني "كامل" بسـؤال اسـتنكاريّ ، لكنه مشمول بالحنان :

- رايح فين يا نبيل يا بني؟

- هزور امي.

يُدير رأسَه يتأمل المطر الذي يزخ من وراء الزجاج العاكس ويقول:

- الدنيا بتمطر استنى لما المطر يقف.

- لا معلش أنا لازم اروحلها حالا؟

- ومستعجل ليه يبني.

- مفيش حد ضامن عمره.

تدورعيناه في محجريهما مندهشاً وغيرَ فاهم لما أقول ، بينما أتجاهـل اعتراضه وأكمل طريقي لأفتح البـاب ، مع انفراجه تهُبُّ في وجهي ريح ممطرة وتصفر في أذني ، أتجاهلها معتمداً

على عكازي وأدفع الباب الجرار لينزلق خلفي، أستدير مُكملاً طريقي غيرَ عابئ بالمطر المنهمر فوق رأسي ، العشب الأخضر يرقص من حولي فرحاً بزخّات الحياة ، المطر بالنسبة لها حياة، أما أنا فحلقي جافّ ودواخلي متيبسة كأنني روح مُحنَّطة ، ما يمطر بداخلها لا يعدو كونه حمضاً يأكل حشوتها.

أتقدَّم رغم أنَّ الرؤية شبهُ منعدمة ، قدمي السليمة تعرف الطريق من تلقاء نفسـها، أدخل البيت الخشـبيّ لأجده حيّاً مُبهجـاً ، على عكس الشـحوب الذي يلف الحيـاة بالخارج ، اللبلاب الأخضر تسـلقه ، والأقحوانات البيضاء غزت كل بقعة منه ، يُدهِشُـني أنْ أجـد إحداها ذابلة ، لا تسـتجيب حتى لقطـرات المطر التي تبللها، لماذا صرت أرى الموت في كل شيء مـن حولي، صرت ألحظ حضوره بوضوح غريب؟ أظنه قد بدأ يُبيح لي ببعض من أسراره ، صار يعتبرني منه.

أُغلـق باب الحـوش من خلفـي ، فتنطفئ شـدة الريح ويهـدأ المطر إلى حد كبير، لا يبقى منـه إلا قطرات تنفذ من بين فراغات الشـبكة الخشـبية ، وريح خفيفة تتسلل لتلعب بأوراق اللبلاب، أبصر شاهد قبر أمي الأبيض يطل برأسه، كأنها تمد عنقهـا فرحة بلقائي، فأتوجه إليـه مباشرة، خمس نقلات توصلني إليـه، فألقي بعكازي جانبـاً ، وأعانقه وأبكي ، بينما أناجيها:

- وحشـتيني قوي، أنا عارف انك حاسـة بيا، وعارف انك هتسـامحيني في اللي هعمله و اللي هقوله، مهما كان صعب عليا أو عليكي، انا مش هقدر اندفن معاكم، مش هقدر أكون معاه في مكان واحد تاني، كفاية اللي حصل لي منه طول حياتي، مقدرش اموت مرتين، أنا اسـتنيت الموت كتير علشـان أكون جنبك لكن لما جه بقى مستحيل ده يحصل، سامحيني يا أمي ربنا يعلم قد ايه انا موجوع وقد ايه حاسس بالذنب، لكن ده الحل الوحيد اللي قدامي، سـامحيني وخلي ربنا يسامحني انا عارف ان ربنا بيحبك، ربنـا بيحب كل الطيبين والصافين اللي زيك، هتوحشيني يا أمي، هتوحشيني قوي.

أفيق من دوخة مشاعري بعد فترة لا أعلمها، تصفو نفسي فأعود إلى المنزل وأمسـح عيني وألتقـط الiPhone ، وأتصل بصلاح :

- ألو يا صلاح ازيك.

يأتيني صوته بعيداً بإشارة ضعيفة متقطعة:

- ازيك يا نبيل عامل إيه النهارده.

- الحمد لله أنا عايز منك طلب مهم.

- اتفضل.

- عايزك تجيب حد يبني قبر جديد، جوه البيت الخشـب، جنب قبر أبويا وأمي.

- قبر!؟ ايه اللي حصل؟

- مفيش حاجه حصلت بس يمكن نحتاجه في المستقبل.

- نبيل انت خوفتني في ايه؟

- مفيش حاجه صدقني، بس ياريت لو هتجيب حد تجيبه النهارده وانا بره البيت.

- انت رايح فين؟

- هخرج أخلص شوية حاجات وارجع.

- طيب استنى اجيلك أوصلك طيب.

- لا هسوق بنفسي؟

- تسوق ازاي بحالتك دي؟

- هاخد الJeep الاوتوماتيك؟

- يا نبيل استنى الله يخليك. الجو مطر ومش متحمل.

- لا انا خرجـت قبل كده والموضوع كان عادي، متقلقش، هاخلص وأعدي عليك. سلام.

أستجمع نفسي وأدهس بعجلات سيارتي حبّات المطر المتقاطرة فوق أسفلت الطرقات لأحطَّ بها أمام ورشة "خليل نصيف" ، من نظرة واحدة أعرف أن الرجل لم ينمْ ليلته ، أرى ذلك بادياً في ملامحه الذابلة وعينيه الحمراوين، بينما يقف أمام ماكينة صنع الوتر وقد شدّ بين طرفيها خيط الحرير، يديرها لتهدر برنين مزعج ويبدأ في محاذاة خيط النحاس بأصبعه المرتعش عرضيًّاً مع خيط الحرير حتى يتم ضفرهما سوياً كوتر واحد ، بالأخير يوقف الماكينة ويقص طرفي الوتر، ويعلقه على إصبعه، فأرى النجاح يتدلى منه كخط طويل يضع حدّاً لنهاية مفتوحة.

- صباح الخير يا أرتست

- صباح النور يا فنان.

- هو ده الوتر؟

يفرد جزءاً منه بين أصبعيه المرتعشين مسافة متر، ثم يرفعه أمام بصري متفاخراً: أه هو ايه رأيك؟

أمرر سبابتي عليه وأقول بامتنان : عظيم جدا.

يشده بين يديه بعزيمة تظهر في كرمشة ملامحه وانضغاط أسنانه وتوتر ذراعيه ثم يلين ويقول:

- الوتر ده أشد من وتر الصيد.

- ده بالظبط اللي انا عايزه .

- بس ده مش هيديلك النتيجة اللي انت عايزها وهينشذ معاك؟

- مهو ده طلبي بالظبط .

ألتقط الوتر وأخرج ساهماً دون أن أنطق بكلمة ، أركب سيارتي وأثبت سرعتها وأتركها تشق شوارع القاهرة كأنها جواد يفهم ما يجب عليه أن يفعل ، جواد كنت أعرفه يوماً مًّا.

بمرور الوقت يزداد تعلقي بقمر، كلما أزور المربط أهرع إلى حظيرته فوراً فأسحبه وأتمشى به ، شعوري بأنَّ لي صديقاً يحبني وأحبه وبذات الوقت أستطيع أن أفرض سيطرتي عليه يمنحني نشوة نجاح لم أجربها من قبل، يمنحني كذلك نشوة الحب ، أعتني به كثيراً، أحضر له السكر، وأستمتع برقة شفتيه وهما ينهلانه من بين يدي ، أمسح على جسده بكفي الصغير المبطط فيصهل صهيلاً خفيضاً يعبر به عن حبه لي ، لكني بالمقابل لا أحرز أي تقدم ملموس في تعلم الفروسية ، أكتفى دوماً بالتمشي إلى جواره في المربط دون ركوبه ، وكلما حاول أبي إقناعي بامتطاء أي فرس آخر أرفض وأبكي ، فتضطر أمي أن تستسلم لرغبتي في النهاية ما يشعل غضب أبي ، يمسكني

من كتفي وينفضني من الغيظ صارخاً:

- لحد أمتى هتفضل جبان؟

- خلاص يا مصطفى سيبه لما يكبر شوية.

يستجيب لها وفي عينيه يتبدَّد الشَّرَر، لكنه يظل غيرَ راضٍ عن ارتباطي بقمر، كلما يراه يمتعض ويشمئز وينعِى حظه العاثر الذي أوقعه في هذا الفرس المعيوب الذي لا نفعَ فيه.

- ق ال قمر قال، ده ضلمه وسواد.

يتغاضى عن علاقتي به لفترة قصيرة ، لكن لا تلبث كراهيته له أن تتأجَّج ، حينما أقرر أن أمتطيه في لحظة غضب سببتها معايرته لي بضعفي ، أسقط من على صهوته وتنكسر قدمي كسراً شديداً يجعلني أطلق صرخة كادت حنجرتي أن تحترق بسببها ، صوت قرقعة قدمي أخافني لدرجة أنني أغشِيَ عليّ، لم يكن أبي حاضراً هذا الموقف فظنَّ أنه طرحني عمداً ، لم يفهم أبداً طبيعة العلاقة بيننا ، حينما امتطيت قمر رقص قلبه من الفرح وجرى يحتفي بي ويحدر بخيلاء رافعاً رأسَه إلى السماء ، كأنه يريد أن يطولها ، لكن قدمه القصيرة خانته ، ووجدتني أتعثر وأسقط من فوقه لأهبط على ساقي .

- كسر في القصبة والشظية.

لم يكَدْ الطبيب يقولها وهو يشير إلى الأشعَّة إلاَّ وجَنّ جنون أبي ، رأيت في عينيه جمرًا يتأجَّج ، كأنه يعقد النيّة على إلحاق ضرر ما بقمر، لذلك وبمجرد أن لُفَّت قدمي بالجبيرة تحايلتُ على أمي أن نقيم في المربَط خوفاً أن يؤذيه، وافقت على الفور لأنها أرادت أن تتحسَّن حالتي النفسية ، إنما لا يمضى لنا يومان في الكوخ إلاَّ ونسمع ـ ونحن نتناول الغداء ـ جلبة من حوافر الخيل، يتبعها صوت صهيل صارخ يتواصل ، نجفل ونترك الطعام ونخرج لنتابع الموقف ، تصطدم أبصارنا بعنق قمر وكيف هو عالق بين عارضتين خشبيتين، وقدمه مبرومة ومحشورة مع رأسه بينهما.

يصيح أبي سائلاً أحدَ العمال: ايه اللي حصل يا سلامة؟

- المهر حاول ينط الحاجز يا دكتور.

- الغبي.

يهبط أبي مُسرعاً إلى الميدان ، بينما تساعدني أمي لنلحق به ، نصل حينما يكون قد تعاون مع العمّال على تخليص عنق قمر وساقه من بين العارضتين وسدحه على بطنه ، تصيبني حالة ذهول حينما أجده يمد عنقه ويصرخ من الألم، ساقُه القصيرة مكسورة وملفوفة على نفسها على شكل حرف "لا"، أدير وجهي لأبي مستنجداً به، فأجده يرفع هوائي هاتفه اللاسلكي

ويجـري اتصالاً مَّا: ازيك يا دكتور جلال ... انا بخير الحمد لله ...آه... المهر المعيوب حصله "Compound fracture" ... لا الموضوع صعـب ومحتاجلك ... طيب هتيجي امتى؟ ... تمام في انتظارك.

تفجعنـي كلماته فأفلت يد أمي وأرمي العكاز وأجلس إلى جـوار قمر، أدفعه برأسي من رقبته ليقوم ، لكنه يصهل صهيلاً خائراً تصحبه نظرة استجداء تؤلمني أشد من الطعنة ، أجذب أمي من ملابسها وأترجَّاها:

- علشان خاطري يا ماما خلي بابا يعالجه.

تُربِّـتُ عـلى ظهري معلقـة عينيها بعينـي أبي ، يتبادلان نظراتٍ زائغة لا أفهمها، قبل أن يباشر أبي مع العمال نقل قمر إلى العيادة الصغيرة المجاورة لبوكسات الحظيرة .

بعد عدة سـاعات يحـضر زميله الدكتور "جـلال" ومعه أدوات طبية ، يحقنه الدكتور "جلال" بجرعة مخدرة ويُجري له بعد ذلك شـيئاً يسميه "الأشعة" ، أشـاهده يفحص لوحاً أسودَ باهتمام وتدقيق ، أسمعه يتحدث مع أبي عن"fibula"، تلك الكلمة التي لم أنسَـها، وألحظ عـلى وجهيهما الامتعاض والأسف الشديد ، قبل أن يبدئا في إعادة الساق الملتفة لوضعها الطبيعي في رفـق خبير، يكللانه بتركيب دعامات بلاسـتيكية

كبيرة ودق مسامير.

بعدها يُشرفان سـوياً مع العُمَّال على ربط قمر من عنقه وبطنه وفخـذه بحمالاتٍ صفراءَ من الجلـد تتدلَّى من رافعة حديدية مثبتة في السـقف ، يسـمونها "رافعة أندرسـون" ، ترفعه الحمالات ليقف مستقيماً ومتعلقاً بها.

ينتهيان فأشاهد أبي يسـأل الدكتور "جلال" عاقداً ذراعيه خلف ظهره :

- مفيش أي جديد في أبحاث الزرع؟

وأرى الأسى عـلى وجه الأخير وهو يهز الدعامة ليتأكد من ثباتها فيما يحرك رأسَه نفياً .

يمضي يومان وقمر معلق من بطنه ، يعاني ويصهل ويخور، أحاول أن أقدم له في كفِّي حفنة من السـكر، لكنه يرفض أن يلْعَقَهـا ، يوجعني أن أشـاهد ما تحت عينيه مبللاً بالدموع ، دموعه الصامتة تفطر قلبي ، أفتح شفتيه فإذا بأسنانه مطبقة، حتى الجزر يتشممه ويلفظه ، وفي اليوم الثالث أعرف أنه قد امتنع عن الطعام تماماً، حينما أسمع أبي يقول لأمي وهو يقرأ الجريدة في الحديقة المجاورة للكوخ :

- المهر دخل نوبة اكتئاب.

يقولها ويقلب صفحة الجريدة بشكل روتينيّ ، فيما دمعة تتجمّع في عيني أمي الفيروزيتين.

***

لا أدري هـل قادتني السـيارة إلى شركة أبي ، أم قُدتها أنا ، لكنّي وصلت في غضون نصف الساعة .

أدخل "Tri-Vac"، شركة الأدوية التي أنشـأها أبي لتجارة أمصال الحيوانات والطيور والأسـماك ، معتمداً على صديقي الصدوق هـذه الأيام ، عُكّازي ، أسـتطيع بمعاونته أن أدوس على قدمي المُجبَّرة على الأرض ، لكن بحذر شـديد. لم آتِ إلى هنـا ولا مرة منذ افتتاح الشركة ، وبالقطع عزوفي عن الحضور كان يثير جنون أبي ، إحساسـه بأن كل ما يفعله سيضيع رغم أنّ له ولـداً كان يقتله، وبالمقابل يسـعدني، على أيه حال قد فات ما فات.

أمام الاستقبال يستوقفني أحدُ موظفي الأمن:

- اهلا وسهلا حضرتك داخل لمين؟

يضايقني أنهم لا يعرفونني لكني أجاوبه :

- أنا صديق شخصي للأستاذ صلاح.

- في ميعاد معاه؟

- لا؟

يرفع سماعة الاتصال الداخلي ليستأذن ، بينما يسألني نقول له مين؟

- نبيل الليثي.

يفهم أنني مالك الشركة ، فيُعيد السمّاعة إلى مكانها ، ويمرر بطاقة المصادقة على الحساس فينفتح الباب الزجاجي بطقّة مميزة ، يدفع لي دفة الباب متراجعاً ومشيراً براحته :

- اتفضل يا أفندم.

أعبر لأمرَّ بين مكاتب الإدارة المُقَسّمة إلى مقصوراتٍ زرقاء متجاورة ، يحمِل بابُ كل منها لافتة معدنية صغيرة، تشير إلى اسم الموظف ومسمى وظيفته، فلا يعيرني أحدُهم أيَّ اهتمام، كلهم منشغلون إما بالاستجابة لرنين الهواتف أو استقبال الفاكسات وطباعة الأوراق، عند نهاية الممر الفاصل بين المكاتب الصغيرة يظهر مكتب "صلاح" ذو الواجهة الزجاجية، ألمحه من بين شرائح الستائر المفتوحة ، يدور بالغرفة منهمكاً في مكالمةٍ مَّا ، أتقدم وأصل عند باب مكتبه بعدة خطوات قليلة ، لكن قبل أن أمسك بالمقبض تستوقفني اللافتة الزجاجية المثبتة على الباب :

"المدير العام".

شيءٌ ما يحيك في صدري تجاه تلك الجملة ، غِيرة ممزوجة بندم لا أجد لهما سبباً ، لكن لماذا أغارُ وأنا من تجاهلتُ كل هذا؟! أكبت هذا الإحساس وأفتح الباب لأدخل فيتصلب "صلاح" في ذهول فور أن يراني ، يُنزل التليفون من على أذنه وتنفتح عيناه على اتساعهما :

- نبيل!

- مفاجأة مش كده؟

أقولها بينما أستريح على الكرسيّ المخمليّ المشدود ، المستقر قبالة مكتبه ، وأضع عكازي لأردف في نبرة لا تخلو من حسرة :

- أول مرة اجي الشركة، لدرجة ان الموظفين في الاستقبال معرفونيش.

يتجاوز كلامي ويقول بلهجةٍ فظّة ، تذكرني بلهجة أبي :

- ايه اللي عملته ده يا نبيل انا لسه قافل مع مدير البنك ومش مصدق اللي قالهولي.

- قصدك على التحويل.

- اه طبعا، حولت 20 مليون جنيه لمين يا نبيل؟

- مش هقدر أقولك.

- يعنـي ايه مش هتقدر تقولي، أنا في موقف سيء والشركة بتقع.

يقولها ويُهرَع لمكتبه ، فيجمع من على سطحه عدة أوراق منثورة ليعرضها أمامي ، واحدة تلوَ الأخرى.

- شـايف ده؟ ده فاكس بأمر تعميد مباشر لمدة 3 سـنين لتوريـد أمصال لمـزارع الصفا، وده زيه لمـزارع المراعي، وده لمزارع جرين فارم، وده لميت لاند وده للمصرية السـودانية، وده لمـصر فـوودز، والورقـة دي أمر الشرا الـلي احنا بعتناه لمصنع Pure Complex في إنجلترا، لتركيب نسـب اللقاحات والأمصال، وطبعا شايف المبلغ المكتوب تحت.

ويشـير بأصبعه إلى آخر سـطر في أمر الشراء ، فأتفرّس في الرقـم بتدقيـق ، 4 مليون وثلاثمائة ألف وخمسـائة وأربعين دولاراً ، بينما هو يواصل شـكواه ، مشيحاً بذراعيه دليلاً على قلة الحيلة:

- انا المفروض اجمع الدولارات دي من السـوق خلال كام يوم، وإلا كل الشغل ده هيضيع، وطبعا رصيد الشركة في البنك لا يسمح بعد اللي انت عملته بدون ما ترجعلي ولا حتى تاخد رأيي.

-رأيك مكنش هيفرق.

يـزداد عصبية فتجحظ عيناه الواسـعتان : يعني ايه مش هيفـرق، انت متصـور حجم المجهـود اللي عملناه علشـان نكسـب المناقصات دي؟ انا الموظفين عندي مكنوش بيناموا، اشتغلوا ليل نهار علشان يجهزوا العطاءات ويدخلوا العينات فحص وياخدوا عليها الموافقات والتراخيص.

أمُدُّ يدي له بالشـيك غيرَ مبالٍ بما يقول ، فيخطفه وينظر فيه :

- ايه ده ؟ 5 مليون جنيه؟ اعمل بيهم ايه؟

- دول ليك.

يرمي بالشيك على المكتب وينظر في عيني بتحدٍ ، معتمداً براحتيه على ذراعي الكرسي الذي أجلس عليه :

- نبيل أنا الشـغل ده اهم عندي من أي فلوس؟ ده تعبي وشقايا شهور، وبعدين لو سمعت كلامك وبقيت أناني وبصيت لنفسي بس، كل بيوت الموظفين اللي بره دول هتتقفل، الفلوس دي مـش هتنفعني وانا قاعد في بيتي، احنا قيمتنا في شـغلنا مـش في الفلوس وبـس يا نبيل، قيمتنـا في نجاحنا وتعبنا، في احساسنا واحنا بنشوف أهدافنا بتتحقق ونشوف نفسنا بنكبر واسمنا بيعلا.

- بعت حد الفيلا يبني القبر؟

يكاد يُجَنُّ وهو يضغط أسنانه ويعتدل ليقول عاقداً ذراعيه

- من بدري، ولو سمحت متغيرش الموضوع اللي بكلمك فيه، الفلوس دي لازم ترجع يا نبيل.

- الفلوس دي مبقاش ينفع ترجع يا صلاح.

- يعني ايه مينفعش ترجع؟ و ليه؟

- لأنها مبقتش ملكي.

- مبقتش ملكك أزاي؟ حولت الفلوس لمين يا نبيل؟

- مش لازم تعرف.

- يعني ايه مش لازم اعرف؟

- يعني مش لازم،

- انت عايز تجنني؟

- لا أنا بس حبيت أعرفك.

- انت جيت هنا ليه يا نبيل؟

- علشان أديلك الشيك .

- متأكد؟

- أه طبعا

أقولها وأتركه لذهوله، فأعتمد على عكازي وأغادر، لم أسارحه برغبتي الدفينة في تحطيم أحد الأصنام التي عذبني أو كثيراً لانصرافي عن عبادتها.

- عمرك ما هتبقى بني أدم، الشركة هتضيع من بعدي بسببك.

لكني أظنّه قد لاحظ التشفي الذي كان يقفِز من نظراتي.

أكتشف أن كل الموظفين قد تجمَّعوا أمام غرفة مكتبه، صوته كان عالياً جدّاً، لكني لا أهتم، أفجُّ لنفسي طريقاً بينهم وأغادر لأركب سيارتي وأرحل.

(قد لا نصل)

بمشـاعِرَ جنينيَّةٍ بريئة ، وقلب متخلص من كل أحمال الماضي وترسباته، أقف على بعد خطوات من نافذتي المفتوحة، أراقب الغيوم وهي تحتشـد لتشـهد مراسـم الوداع الأخير، موجات متواصلة من الهواء البارد تهُبُّ على وجهي وجسدي، أشـعر معها كأنني طائرة ورقيَّـة تهفو بحرية في موج الريح ، لكنها حرية منقوصـة فمازال هناك خيط رفيع يربطني بتلك الحياة ، جدران غرفتي الرمادية تحتوي موسـيقى My silent cry المنسـكبة من نظام الصوت المحيط ، ودقات الخامسـة صباحـاً تعلن عـن وصـول رحلتي قبل موعدهـا ، حتى قناة "Showtime" تـؤازرني ، تعـرض فيلم "The Fault in Our Stars" ، كل شيء مثاليّ بشـكل لا أتصوره ، مثاليّ بشكل يُقلِق.

تلاحُـق أنفاسي الثقيلة يبتلع كل الأصوات من حولي ، لكنه سرعان مـا يطيش بفعـل دمدمات الرعـد المتفجرة في قلب السماء، أنتظر ريثما ينطفئ وميض البرق المتكسر بين الغيوم، فأنقـل بؤرة تركيزي إلى الوتر المعلق في حلق النافذة البيضاء،

عقدته على هيئة أنشوطة متينة ، أنشوطة كافية للموت.

أتقـدم نحو الوتـر بخطوات واثقة رصينة ، وقلب يشـعر بالتماسـك لأول مرة منذ سكن هذه الضلوع ، للمرة الأولى لا أجد في نفسي أيَّ تردد أو حيرة ، بل أشعر أنني ممتلئٌ بالقوة حدَّ المغامرة الأقصى ، وربما حدَّ الجنون.

هذه هي لحظتي ، لحظة الانفصال الاختياريّ عن الحياة ، واللجوء الاختياريّ أيضاً للموت ، غافلني الموت في ساعة غدْر حـدَّد فيها مهلتي بدقة موظف بيروقراطيّ متصلب ، وسرقت الحيـاة مني نصفها بعبث غانية لعوب ، كأنهما يؤازران أبي في لعبة تحديد مصيري ، لكني الآن أخدعهم جميعاً ، أهزمهم في لحظة ميلاد جديد ، أتخلى فيها عن بقايا فرصتي من الحياة ، وأهرع فيها إلى الموت دون أن يستعد ، أقطع للأبد سلالة أبي.

لحظة انتحار إنسان ميت.

إنسـان ترك على سريـره وصية تحمـل كل آماله من تلك الحياة ...

"ادفنوني لوحدي في القبر الجديد" ...

أقـترب مـن الوتر المتـدلي ، وأمرِّر رأسي بين فراغه ، أشـد الفتيل حتى يحزَّ في رقبتي ، أعتمد على عُكّازي، أعتلي الكرسيّ

الخشبيّ ، أخطو فوق إفريز النافذة، وبلا أتردد أقفز...

أُحلِق للحظة في عالم حُرّ بلا قيود ، لكنها للأسف أقصر من أن تُحكى، يخطفني الوتر من رقبتي بعنفوان قاتل مأجور، يعصرني لأعاين ألمَ الموت ، قبَسُ الحياة ينطفئ في روحي ، أغيب.

يتوقف الزمن .

أعلق في لحظة من العدم، قاتمة وصمّاء، لا أشعر فيها بجسدي، لكنّي موجود، ربما لا أحس بشيء، لكنْ بمقدوري أن أفكر، يبدو أن الموت ما هو إلاّ حالة يعلق فيها الإنسان داخل مساحة أبدية من العزلة ، لكن يبدو أيضاً أنه حتى العدم يفنى، فهناك صوت صهيل خائر أسمعه يتنامى بوضوح، ينفث في جسدي الروح فأفزع له دونما سبب ، أدلي قدمي لأهبط من سريري ، أكتشف أنهما صغيران ، وأن اليسرى مكسورة ، فأعرف أنني في كوخ المربط ، وأفهم أن ما سمعته هو صوت قمر، أتأبط عكازي وأتوكأ عليه للخروج ، عند عتبة الباب أرى الشمس في البعيد مثل برتقالة منيرة تتزلج سماء ثلجية باردة ، وأرى الهواء يتلاعب بأغصان شجرة الليمون المزروعة أمام الكوخ ، أنزل الدرجات الخشبية في مجاهدة ، متجهًا إلى حظائر الخيول وتحديدًا حظيرة قمر، أصلها بعد عشرين

خطوة لقدمي فأتوقف مستنداً إلى بابها الخشبيّ القصير، أعلق بصري بأبي الواقف من أمام قمر موليـاً ظهرَه لي، يتأخر عنه الدكتور "جلال" بخطوة وأمي بخطوتين ، أشاهد الدكتور "جلال" يكلمه، ماداً له يده بمحقن زجاجيّ كبير:

- حقنة كلوريد صوديوم في الوريد هتريحه يا مصطفى.

إنما أبي يرفض ويقول:

- الخيل عزة وكبرياء يا جلال.

ويُنزل بندقيته من على كتفه ويصّوب عنقها إلى قمر، يرتجف قلبي حينما أرى أمي تحوّل وجهها بعيداً، والدكتور "جلال" يمسك بذراع أبي الأيسر يترجّاه:

- موت رحيم يا مصطفى.

- موت عزيز يا جلال.

يفلت أبي ذراعه ويشد مشط البندقية ثم يطلق رصاصته الغادرة ، فلا يكاد صفيرُها يتبدّد حتى يغمر الدم قمر ، ويطرطش ملطخاً القشّ من حوله ، يفجعني المنظر فأصرخ وأنا أحجل نحوه : قمر!

يلتفتون إليّ ويجذبني أبي من ساعدي:

- ابعد يا نبيل انت مش فاهم حاجه .

وتصرخ أمي فيه: الولد شاف المنظر.

ينشـغل مع تأنيبهـا فأفلت يده وأهبط فوق جسـد قمر الحار المتعـرق ، أحاول أن ألملم الدم المتفجر من غرّته بكفي الصغير، لكنْ لا شيء يفيد ، قمر لا يرفع رأسه ولا قوائمه ، قمر مات.

يفور الغضب بداخلي حتى لا يهدأ.

تَمـضي اللحظات المتبقية من النهار وأنا في حالة خرس تام، لا أنطـق ولا أحرك سـاكناً ، حتى بـصري لا أحوله عن كرسي الخشب مكسور الساق ، المستند إلى جدار غرفتي ، تحاول أمي إخراجي من تلك الحالة بشتى الطرق ، تحضنني ، وتكلمني :

- بابا هيجيبلك مهر زيه يا حبيبي متزعلش.

لكني أبعدها، وألفظها ، أمنحها نظرة لائمة تلمع بالدموع! تسـألها لمـاذا تركتيـه يقتلـه؟ وتفهمها فتربت عـلى كتفي تواسـيني، فيزداد غضبي ، أحول وجهـي إلى الكرسي وأضرب قدمه السليمة بعكازي ، فينكفئ على مسنده .

يحُلُّ المساء فأستغل انشغالها بإعداد القهوة لأبي، وأغافلها

لأهرب مـن الكوخ، بداخلي كراهية ممزوجة بخوف، يجعلان من قلبي جمرة تحترق بين أضلعي، لا يمكن أن أعود لأبي مرة أخـرى، أبي قاتل، قتل قمر، قتله لأن قدمه مكسـورة، أعتمد على عـكّازي وأدفع جسـدي بأسرع ما أسـتطيع لأخرج من البـاب الخلفيّ . على عتبته ، ألمح شـاحنة كبـيرة تقف عند الرصيـف تحت مخروط ضوء عامـود الإنارة ، أنتبه أن أبواب صندوقها الخلفي مفتوحـة ، فتراودني فكرة الاختباء بداخلها، أعود فأتردَّد قليلاً ثم أحسم موقفي وأهرع إليها، حينما أسمع صوت أبي ينادي أمي، أعاني حتى أصلها فأضع عكازي بالداخل، أعتمد بذراعي على سلمها الخلفي، وأدفع جسدي لينزلق إلى جـوف الصندوق المظلم، وبمجاهـدةٍ أزحف على بطني حتى أختبئَ في ركن بعيد منه، أعثر على حاوية للتبن فأتكور خلفها وأستكين ، بعد بُرهة أسمع أصواتاً تقترب، وأرى أحدهم يفتح الباب فتسـقط بقعة النـور داخل الصنـدوق، مقطوعاً منها ظـلال ممطوطة لعدة رجال، غير أنهـا لا تنال من مكاني ، أنا كامن في مكمني المظلم، صامت، أرتعش.

يزداد خوفي حينما أسـمع أحدهم يقـول : ارفعوا معايا يا رجالة.

وأسمع أنينهم ، وهم يطرحون شيئاً ضخماً داخل الصندوق،

أراهم يغلقون دفتي الباب فيتلاشى النور وأسمع تكّة معدنية، يليها هديرٌ أحس معه بتحرك السيارة. ترحل بي إلى حيث ينتظرني المجهول ، مع استغراقي في الظلام أبدأ في رؤية بعض الملامح تدريجيًّاً، أكتشف صندوقاً للعدد وعدة حبال لا أعرف فائدتها، أبسط راحتيَّ على أرض الصندوق، وأدفع جسدي بذراعيَّ لأزحف من الوضع جالساً إلى الباب، وهناك تتأكد شكوكي حول الشيء المسجى داخل العربة، أيا وجعي، إنه قمر.

عيونه المفتوحة المبرقة ولسانه المتدلي من بين أسنانه البيضاء الغليظة يخيفاني منه، لكن حبي له مازال ينبض بداخلي بنفس حرارته وحنينه الأول، أنيخ رأسي فوق رقبته التي انسحب دفؤها، أستسلم للحزن فأبكي، وأنسى العالم وأنام.

- "قلْ يا عبادي الذين أسْرَفُوا على أنفسِهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغْفِرُ الذنوب جميعاً إنَّه هو الغفور الرحيم".

أفيق على صوت رائق يرتل تلك الآيات من القرآن الكريم، لا أفهم أين الموت، لازلت لم أره ، أو ربما هو هكذا ، مجرد حالة انتقال لعزلة تصاحبك فيها ذكرياتك، لو كان كذلك يكون الموت نعيماً لسُعداء الحياة وجحيماً لتعسائها. المشكلة أنني

أعرف صاحب الصوت، أوقن أنني سمعته من قبل، لكنّي لا أحمل أيَّ ذكرياتٍ عن تلك الآية، ربما هو ملَك أو أحد الصالحين! لا أظن، فأنا لا أستحق الجنة، لم أقدم في الحياة مهرًا لحورها ولا قرباناً لأنهارها.

- "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون" .

في صعوبة أرفع جفنيَّ الملتصقين بمقلتيَّ لأستطلع المشهد، قدرتي على الرؤية لازالت مشوشة، لكنّي بمرور الوقت أبدأ في تبيّن ملامح المكان، أنا في غرفة عناية مركزة، عند طرف سريري يجلس صديقي "أيمن" ، وبين يديه مصحف.

أستوعب الموقف كاملاً، أنا مازلتُ على قيد الحياة، لكن كيف؟ لابد أن هناك خللاً ما حدث ومنعني من الانتحار، أحاول أن أنبه "أيمن" إلى أنني قد استيقظت، لكني ما زلتُ أفقد السيطرة على أطرافي، جسدي أثقل من عقلي كأنه يجثم على روحي أو كأنَّ الخدر يعيد حقن نفسه داخل أوردتي من جديد، جرعته تتدفق بين خلاياي مركزة مؤلمة، تسحبني من الحياة كوحش يشد فريسته إلى حيث عرينه المظلم الملتف المخيف.

أستيقظ على صوت اصطدام جسمين معدنيين، تنجم

عنه موجة ارتجاجيّة شـديدة تنفض أضـلاع الصندوق وتهز جسـدي، أدرك أن صندوق الشـاحنة قد التحم بآخر، وأنني أمسـيتُ داخل نفق صغير مـن الجدران الحديديـة، وتنتبه حـواسي فجأة لصوت أنفاس ثقيلة تتردد بصدى مريب، أتوتر فأسـحب عكازي وأتراجع لأنكمش خلـف حاوية التبن، بينما أسمع الرجال بالخارج يصيحون:

- اتأكدت من الأقفال كويس؟

- اطمن تربست كل حاجة.

- طيب افتح.

بنهاية حوارهم، ينفجر صوت صرير حاد، كأنَّ بوابة تنزاح، يتبعها دبيب ثقيل، أمد رأسي من خلف حمّالة الحاوية، فأرى على امتـداد الصندوق عيـنين زجاجيتين كبيرتـين تلمعان في الظـلام، أنكمش في مكاني وأكتم أنفاسي حينما أتبيَّن أن القادم باتجاهــي نمرٌ مخطط ، يرتعش جسـدي، مـع تصاعد هدير زفراتـه، يزأر فاغراً فكّه المريـع، فكأنَّ العالم من حولي يتزلزل، أطبق عينيَّ ضاغطاً عليهما بشكل غريزيّ، يتكرر الزئير، ينخلع قلبي الطفوليّ الرهيف، لا أحتمل الموقف، يصرعني الخوف.

- حمدلله على سلامتك يا نبيل

أفتـح عيني ليقابلني وجه صديقي "أيمن" ، أفيق تدريجيّاً وأعتدل لأتبادل معه كلمات قليلة متباعدة، لا تخلو من شكر وفرحـة مني بوجـوده، وحمد لله منه على شـفائي ، وتنتهي المقدمات بأن يبدأ في تفسير ما حدث:

- أنا شـفت اللي حصل من بلكونة الفيلا عندي، شـوفتك وانت بتقع من الدور التاني، فجريت الحقك، لقيتك غايب عن الوعـي وفيه وتر متعلق في رقبتك، شـلتك انا وكامل وجبناك المستشـفى هنا، طبعا فهمت إنك كنـت بتحاول تنتحر وده صدمني جدا فيك، ليه تعمل كده في نفسك يا نبيل؟

- النهارده كام في الشهر يا أيمن؟

يندهش من سؤالي لكنه يجيب: النهارده 6 يناير.

- يعني انا بقالي هنا 3 أيام ؟

- آه تقريبـا، كنـت بتفوق أوقات قليلـة وترجع تنام تاني بسرعة، الدكتور قال ان رجلك المكسورة انكسرت في مكان تاني والشرايح غيرت مسـارها، بس في النهاية عملوا لك عملية فيها والحمد لله تمت على خير، قدر ولطف.

- مش هتفرق.

- يعني ايه؟

- يعني مش هتفرق.

- يا نبيل الجسد ده مش ملك الانسان زي ما هو فاهم، مش من حقك تدمره ولا تأذيه، الجسد ده أمانه ربنا منحها لروحك، ولما تدمره أو تأذيه تبقى خنت الأمانة دي، وخاين الأمانة عقابه عند ربنا شديد.

- برده مش هتفرق.

- فيه إيه يا نبيل؟ انت بتتكلم كده ليه؟ وليه حاولت تنتحر؟ هو في سر أنا معرفوش؟

أردُّ بفراغ صبر:

- آه يا أيمن ... في سر متعرفوش ... أنا عندي سرطان في المخ وحالتي متأخرة جدا، تقريبا فاضلي أيام، عرفت بقى انها مش هتفرق؟

يسكت طويلاً ، محاولاً احتواءَ صدمته فيما قلته ، ثم يعود فيسألني:

- الخبر ده عرفته امتى؟

- من شهر وزيادة.

يتنهَّد ثم يقول: بص يا نبيل ربنا سبحانه وتعالى بيقول : "وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيِّ أرض تموت" ، وده دليل ان ربنا اختص نفسه بساعة الموت، يعني مفيش حد من البشر يقدر يحددها غيره.

- انت بترفض الطب يا أيمن؟

- لا طبعا، أنا برفض اننا نجعل من الطب قدر يحكم فينا بحكم ربنا، أنا مش بقول ان كلام الطب غلط، بس الطب حدد ميعاد تقريبي لموتك، الميعاد ده ممكن يزيد سنين، وممكن يقل أيام.

- الوقت فات على الكلام ده يا أيمن أنا أقرب للموت مني للحياة.

- حتى لو اتفقت معاك ومع الطب في النقطة دي هرجع وأقولك ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "لو قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها".

- يعني ايه.

- يعني لو الدنيا دي بتتهد وقصة الحياة بتنتهي الانسان مطالب بأنه يجتهد ويستغل كل لحظة فيها، مش يضيعها ويحاول يأذي نفسه بإنه ينتحر، الأصل في الوجود الحياة مش

الموت يا نبيل، الموت طارئ على طبيعة الكون.

- الحياة بتنتهي بالموت.

- لا انــت فاهم غلط ربنا قال على حياتنا دي الحياة الدنيا لأنها مؤقته، "ياقوم إنما الحياة الدنيا متاع وإنَّ الآخرة لهي دارُ القرار"، مجرد تصفيه للأنفس اللي تستحق الخلود، ربنا خلقنا للخلود يا نبيل، علشان كده الروح مش بتموت، الروح بتقبض لفترة يعلمها الله، وبنستردها لما يأذن.

تتواصل أسئلتي الواهنة:

- تفتكر الكلام ده حتى لو اقتنعت بيه ممكن يغير حاجة، يزود في عمري يعني؟

- لازم يغــير، اعمل خير واغتنم نعمــة الحياة لآخر لحظة، بس بالحلال واللي يرضي ربنا.

غــيرَ مقتنعٍ أحــاول أن أنهي الحديث: شــكرا يا أيمن على تعبك معايا.

- متقولــش كده يا نبيل احنا جــيران وأصحاب، وليك عليا بــدل الحق ألف، بس المشــكلة كانت فيك انــت، انت دايما عايش جوه نفسك لما بتكلم، بتكلم نفسك، ولما بتفهم، بتفهم

نفسك، ولما حتى بتتوجع، بتتوجع جوه نفسك، سيب مساحة من نفســك يشــاركك فيها اللي بيحبوك يــا نبيل، وادي كمان من نفســك لغيرك. ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط يا صديقي.

- بالعكس الــلي زي لازم الحياة تتخلــص منهم، عارف لما رجــلي انكسرت وانا طفل، كنت بــصرخ من الألم وبصرخ أكتر من منظرها وانا شايفها مفصوله عن جسمي كله، أنا بالنسبة للحياة زي الرجل المكســورة دي، حاجه بتخليها دايما ضعيفة ولازم تقطعها علشان تفضل قوية.

- وليه متصلحهاش؟

- لانها هتفضل نقطة ضعف.

- الحيــاة محتاجة الضعيف زي مــا هي محتاجة القوي يا نبيل.

- انت اول حد اسمعه يقول الكلام ده ..

الرســول عليه الصلاة والســلام قاله ، قال : "إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم"، عارف ليه؟ لأن القســوة مستمدة من القــوة، يفرق بينهم حرف واحد، إنمــا الضعف بيلين القلوب، بيحي فيها الرحمة والمودة والحب، والحاجات التلاتة دي هي

اللي بتخلي للحياة معنى وطعم وسبب، الضعيف مش عاله على الحياة، الضعيف نبضة ليها.

نتبادل حواراً سقيماً لفترة قصيرة يقوم بعدها ليمسد جبهتي براحته ويتمتم بالمعوذتين فأفهم أنه يرقيني ، أندهش بشدة ممَّا يفعله ، غريب هو.. أيظن أن ثمة شفاء من الموت؟!.

***

- 2 -

برحيله أستدعي الممرضة ، أطلب منها تجميع بطاقات التهنئة المشبوكة في بوكيهات الورد التي تحاصر الجدران، من أقصى اليمين لأقصى اليسار، بمختلف الأذواق والألوان.

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي "مامتك التانية" ... لا بأس طهور ان شاء الله، أخوك أيمن ... ألف سلامة عليك يا بيلو، مقامات وحركات، تخيل الواد رأفت البخيل قال لازم نشترك في بوكيه واحد بدل ما نجيب 4 بوكيهات = D ... سلامتك، د.ريماس ... ان شاء الله تقوم بالسلامة، نرمين كمال... ترجعلنا بالسلامة يا نبيل، صلاح ... ربنا يقومك بالسلامة، مدام ليلي... ربنا يحفظك ويسلمك دايما، عمال المربط... تمنياتنا الطيبة بالشفاء العاجل، Tri-vac.

أكثر بطاقة تدهشني هي بطاقة "نرمين"، موظفة البنك، كيف تعرف ما جرى؟ يبدو أن الخبر انتشر على نطاق واسع، أتذكر ملامحها الجميلة وأناقتها فأجدني أبتسم رغماً عني، لكن سرعان ما تتلاشى ابتسامتي حينما أسمع طرقات خفيضة على باب الغرفة، يتبعها دخول من آخر شخص أتوقع حضوره.

- حمد لله على سلامتك يا فنان.

- الله يسلمك يا أرتست اتفضل.

يقــترب بخطوات وئيــدة حتى يجلس إلى جــواري ويميل نحوي فيحك جبهته توتراً ويقول:

- أنــا أول مرة مبقاش عارف أتكلم، تعرف إن دي أول مرة افرح أني فشــلت في حاجة، أنــا لو كنت أعرف إنك عايز الوتر علشان كده مكنتش عملته أبدا.

- ولا يهمــك يا ارتســت، لكن انت عرفــت اللي حصل لي ازاي؟

- أنا شفت الخبر على قناة المحور، "مالك Tri-vac يتعرض لأزمة صحيــة" وجنبها صورتك، ولما ســألت عليك في الشركة، دلوني على المستشفى هنا.

- فيك الخير يا ارتست.

- طيب انا عارف انك تعبان ومش هطول عليك.

يقولهــا بينما يضــع مبلغاً من المال عــلى الكومود المجاور لسريري فأستفهم منه: ايه ده؟

- دي فلوس الوتر، طالما فشلت يبقى مش من حقي.

- يعني انت زعلان ان الوتر مشنقنيش!

أقولها بســخرية باهتة فتجــزع ملامحه وينفي: لا طبعا يا

فنان، ده كلام تقوله؟!! بس في كل الأحوال انا فشلت.

-انت تعبت واشــتغلت وعملت الــلي عليك، انا اللي وزني كان أتقل من اللازم، خد الفلوس لو مبسوط إني لسه عايش.

يتردد لكني أومئ له برأسي راضياً ، رغم ذلك يستعيد المبلغ بأصابع مــترددة ويغادر، مع خروجه تدخل الممرضة، وتقترب مني وتعد إبرة مسكن، تمررها بأنامل خبيرة في وريدي، وعلى الفور ينسحب النور من حولي ويحل الظلام.

(بعد أيٍّ رحيل)

أفيــق لأجدني راقداً على سرير طبــيّ وأمي إلى جواري، لم أفهــم ما حدث، لكني أعرف بعدها أن أبي اتصل بالســيرك الذي بيعت له جثة قمر وأن الرجال أسرعوا يفصلون العربتين، ووجــدوني نائماً خلف حاوية التبن، وأن الجميع لم يتصوَّر أنني لازلتُ على قيد الحياة.

- صدمة نفسية مضاعفة أفقدته النطق.

يقولها الطبيب فينهار أبي على مقعده وتضمُّني أمي وهي تسأله بصوت أقرب إلى الرجاء :

- مضاعفة ازاي؟

- الولد شــاف الحصان للي بيحبــه بينضرب بالنار وبعدها اتعــرض لموقف لو واحــد كبير اتعرضله ممكــن يحصله فيه ســكته قلبيه، احمــدوا ربنا انه اتعرض لحالــة اغماء بس، ده انكتب له عمر جديد.

تمتدُّ حالة الخرس معي لما يزيد عن ثلاثة أشــهر، تضربني فيهــا الكوابيس ونوبات الفزع، ويتنــاوب على حالتي الأطباء

النفســيون، يحقنونننــي بجرعات مــن المهدئــات ومرخيات العضــلات ، ولا أمــل ، إلى أن يــأتيَ يوم مُمطــر، يُخيَّلُ إلي في صبيحتــه أنني أســمع صوت صهيل متواصــل، فأتوكأ عكازي وأتبعه إلى الحديقة الخلفية، لكني حينما أدخلها لا أجد شيئاً، لا أجد ســوى العشــب الأخضر الخالي، والمطــر المنهمر، أدور حــول نفسي، ربمــا أعثر على الفرس صاحــب الصهيل، فينزلق العكاز ويختل توازني، أســقط للخلــف فيرتطم رأسي بالأرض المبلولــة، أعجز عــن القيام فلا أجد ســبيلاً إلاَّ أنْ أناديَ أمي، أســتجمع قواي وأطلــق صرخة اســتغاثة، في البداية لا يخرج صوتي، لكني أحاول مــرة بعد أخرى حتى يتحرَّر ويتردَّد عالياً بين جنَبَات الحديقة ، تســمعني أمي فتهرع إليّ جزعة، تهبط عــلى ركبتيها وتحتضنني تحت المطر، تمطرني بقبلات ملهوفة، فأحس بشفتيها الرطبتين ترتجفان على خدي وبملوحة دموعها تلذع شــفاهي، أســمع من قلبها رقصة فرح صاخبة ويتسرَّب لي من حضنها دفءٌ مفعم بالأمان، وأســمع همســاتها تطرب كمعزوفة للحنان:

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي.

تكررها وصوت نهنهة بكائهــا يداعب أنفاسي، يتلاحق فلا أكاد أفرق بين غزارة دموعها، وغزارة المطر.

.. "اصحى يا حبيبي الساعة 12" ...

يهمس لي هامس بتلك الكلمة، وأسمع ستائر غرفتي تنزاح، فيغمر الوهج كل أرجائها، أفتح عينيَّ فتقابلني ملامح "ريدا" الجميلة، وهـي تقرب وجهها من وجهـي وتطبع على خدي قبلة نديّة ثم تُمَسِـده بخدها وتداعبـه بأنفها، بينما ذراعاها يحتضنان رأسي .

شفتاها الممتلئتان تهمسان برقة:

- كل سنة وانت طيب يا حبيبي ، النهارده عيد جوازنا.

أعانقها بنفس مستوحشـة وقلب يرتجف، أعتدل لأجلس فيما أنفاسي لاهثة متلاحقة، تشي بأنني لست بخير، تفهم من حالتـي أن ثمة ما يزعجني فتحضـن رأسي في صدرها وتقبلها، تسألني بصوت حنون :

- شفت حلم وحش ولا ايه؟

- آه

- غريبة انت عمرك ما حلمت!

- هو مش بالظبط حلم، هو حقيقة.

تضع وجهَها أمام وجهي متسائلة: ازاي؟

أسـكتُ قليلاً حتى تهدأ أنفاسي ثـم أقول: هو ممكن حد يحلم بذكرياته؟

- تقصد إيه؟

- اقصد إني حلمت بكل اللي حصل لي من سنة، من أول ما عرفت إن باقي لي شهرين وأموت لحد ما ...

تقاطعنـي بنبرة يمتزج فيها الضيق بالغيرة : لحد ما قابلتها مش كده؟

- لا لحد ما حاولت انتحر.

تندهش ، يبدو ذلـك في ارتفاع حاجبيها القصيرين ، لكنّها توافقني الرأي: غريبة فعلا ، اشمعنى اللحظة دي تحديدا؟

- مش عارف يمكن علشان الحلم بيبدأ فجأة وينتهي فجأة؟

تزُمُّ شـفتيها وتعقد جبينها غيرَ مقتنعـة، نتبادل الصمت لفترة قصيرة تنهيها دقـة للحادية عشر صباحاً، حينما يقصف العقرب رأسـها، تنظر مهتمة في سـاعة يدها الصغيرة، وأنتبه فجأة إلى أنها ترتدي زيَّ الخروج، تتوتَّر قليلاً قبل أن تصارحني بارتباك مشوب بتأسف:

- معلـش انا عارفه انك تعبان بس انـا لازم اخرج، عندي

بروفا مهمة جدا على اللحن بتاعك زي ما انت فاهم.

أهُزُّ رأسي : أنْ لا عليكِ ، فتهيم في ملامحي لثوانٍ ثم تقبلني وتقول: بحبك قوي يا حبيبي يا اجمد كومبوزر في مصر.

- وأنا كمان بحبك قوي.

تقبلني ثانيــة وتغادر لتتركني أصــارع ضميري، هذه هي المــرة الأولى التي أكــذب عليها فيها منذ أن تزوجنا، المســألة ليســت مجرد حلم راودني، بل رسالة أرسلتها لي "ريماس" ليلة أمــس ، زوجتي الأولى التي طلقتهــا في لحظة لازلتُ لا أعرف هــل كنتُ ظالماً لها فيهــا أم لا ، فالحقيقة أنني لازلت أحبها، وكأشــد ما يحب الرجال النساء، لكني أعجز عن أن أسامحها، تربيتي القاســية يبَّست أقحوانة التسامح التي تولد في مُهجة كل طفل، لكني أعرف جيِّداً أنني رغم كل ما حققته من نجاح وتغيير، يرجع لها الفضل فيه، لا أحس بالســعادة، لا أحس بها أبدًا.

أرفع الـiphone ويتوتر إبهامي فوق شاشته قليلاً ، قبل أن أفتح الرسائل لأقرأ رسالتها التي استقبلتُها أمس:

" لا أعرف من أين أبدأ رســالتي، لا أعرف حتى لماذا أبعث لك بهــا، كل ما أعرفه أننــي ضعيفة للحد الذي أشــعر معه بروحي تبرد وتبهت، كأنني كنت أســتمد الحياة منك، أتعرف

لم أدعُ على أحد من قبل لكني دعوت عليك ثم ســامحتك ثم دعوت عليك ثم ســامحتك، ثم ماذا؟ لا أعرف ... لا أعرف أي شيء ... لا أخفيك سراً أننــي طعنت خواطري عنك ألف مرة، لكنها لم تمُتْ ولا مرة، أدركتُ أخيراً أننا لا يمكن أن نقتل الحب بداخلنا، الحب حينما يولد يعيش حتى يشــيخ ويموت وحده، الحب ينبض فينــا حتى بعدما نموت، أو يموت بداخلنا ونحن عــلى قيد الحياة، لذلــك ليس أمامــي إلاَّ أن أتهدَّج حبك، أن أراقص ذكرياتي عنك كل ليلة، وأسقط معها كل صباح" .

***

- 2 -

- وديت الفلوس فين يا نبيل؟

لا يكف "صلاح" عن تكرار سؤاله، أثناء زيارته لي في المستشفى، بعد محاولتي الفاشلة للانتحار، وأنا كما أنا صامت متجاهل .

- نبيل الشركة بتقع، وانا مرتبط بمواعيد تسليم وعقود وشروط جزائية. اعقل أرجوك.

أتأمّل ملامحه بأسى، سترته المكرمشة، شعره الكثيف المبعثر وكرافتته المفكوكة، تخليه عن أناقته بهذا الشكل يعني أنه يمُرُّ بأزمة حقيقية لكن ليس بوسعي أن أساعده، مستحيلٌ أن أخبره بما فعلت.

- حضرتك متأكد من قرارك ده يا أستاذ نبيل

ألتقط اسمها، المحفور في المنشور الخشبيّ، الذي يتقدم سطح مكتبها "هناء سراج، جمعية بناء الطفل"، وأرد: أكيد يا مدام هناء .

- بس الفكرة دي غريبة شوية وتنفيذها صعب.

- علشان كده رصدت لها 20 مليون جنيه.

تندهش وتُعدِّل من وضع نظارتها وتفرّ أوراق المشروع ثم تلتقط إحداها لتقرأ منها :

"مشروع إنشاء مدرسة داخلية للأطفال" ...

الهدف : بناء شخصية الطفل، ممكن توضح أكتر ؟

- يعني المدرسة تبني انسان متصالح مع نفسه بيحب الحياة وخالي من العقد والضغوط النفسية، مش مهم يكون شاطر دراسيا أو رياضيا أو فنيا، المهم ننمي عنده الحاجة اللي بيحبها فعلا، مش المكره عليها.

تهُزُّ رأسَها متفهمة و تعود لتستكمل قراءة الشروط :

أن تكفل المدرسة إقامة ومصاريف أسرة الطفل بشرط أن تكون الأسرة بلا أب ، فقط أم وولد وحيد أو بنت وحيدة . مش شايف ان الشرط ده غريبة شوية؟

أرتبك ويخفق قلبي فجأة ، هل تعرف هذه السيدة شيئاً عني ؟! أسارع بتبرير الموقف :

- طبيعي ان الأسر اللي ملهاش أب أو عائل تستحق المساعدة أكتر من غيرها؟ مش كده؟

تستكمل ، رغم انتباهها لارتباكي الواضح: أن تتولى الجمعية

إدارة العمـل الخيري بشـكل كامـل مقابـل تخصيص أجور ورواتب للموظفين من فوائد استثمار المبلغ. تسألني: بمعنى؟

- يعني الرواتب والأجور تندفع من الفوائد، مش من أصل المبلغ.

تتوقـف عن القراءة كأنها تـدرس الموقف ، تجمع الأوراق في الملف ثم تقول: طيب يا أستاذ نبيل أنا هعرض الفكرة على الشئون القانونية وهرد على حضرتك.

- ضروري تردي عليا النهارده ارجوك.

- هجتهد ان شاء الله وأول ما أوصل لقرار هبلغك.

- ممتاز، أول ما هتبلغينـي بالموافقة، هاروح البنك أعمل ارتباط مالي ب20 مليون جنيه لصالح الجمعية.

- اتفقنا.

"رد عليا يا نبيل، بنيت القبر ليه؟ وحاولت تنتحر ليه؟" ...

أسـتفيق مـن ذكرياتي عـلى صوت "صـلاح" وهو يصرخ في وجهـي، إصراري على السـكوت ونظرتي الحائـرة الزائغة يستفزانه كأشـد ما يكون ، أفتح فمي وقد قررت أن أبوح له بالـسر، لكن دخول "ريدا" المفاجـئ ينقذني: فيه ايه؟ بتزعق

كده ليه يا صلاح؟ انت مفيش فايده فيك؟

يصرخ فيها : لو سمحتي يا ريدا متدخليش في شغلي.

- شغل ايه، نبيل تعبان وانت جاي تزعق له؟

يتشـاجران بصوت عالٍ ثم يغادر "صـلاح"، تاركاً "ريدا" غارقـة في دموعها، تهوي على الكرسيّ المجاور لي ، بينما أحاول مساعدتها بمناولتها علبة المناديل التي بجواري ، دموعها كانت دموع اليأس.

- مفيـش فايـده فيه يا نبيل، انا خـلاص تعبت منه، دايما عصبي ومنفعل مش قادره اتعامل معاه خلاص، استمرارنا مع بعض بقى شبه مستحيل.

بكلماتها تلـك أفهم أن العلاقة بينهما قد تدهورت ، كيف حدث هذا في هذا الوقت القصير ؟

- كان نفسي يبقى زيك يا نبيل، يسمعني ويفهمني.

ذبولهـا وشـحوبها يجعلاني أفهـم معنىً جديـداً في هذه الحياة، المـرأة كالزهـرة بالفعل تتفتح مع رجـل وتذبل مع آخر، الرجل الحقيقيّ يجب أن يكون بسـتانيّ، فلا الشكل ولا الشـخصية القوية ولا النجاح يكفون للحـب ، الحب يعيش

فقط بالحنان ، أن تسمع المرأة أن تفهمها ، أن تمنحها كتفك لتضع رأسَها عليه.

***

أخرج من المستشفى بفشل جديد، لكن هذه المرة مع الموت ، أخرج غريباً عن نفسي كما عن الحياة، بداخلي إحساس وحشة مغايرٌ تماماً لما عاينته حينما تعرضت للحادث الأول، يشبه ذلك الإحساس الذي ينتاب المرء حينما ينام على سريره ثم يستيقظ ليجد نفسه وسط أرض قفر، لا يعرف ما الذي أتى به هنا ولا أيَّ الاتجاهات يجب عليه أن يسلك ، يخشى حتى من أن يتحرك ، تركني "عبد اللطيف" هذه المرة بلامبالاة حقيقية، لم يلفظ ولا كلمة، فقط رماني بنظرة مليئة بالاحتقار، لكني لم أهتم! كذلك رد فعل "صلاح" أذهلني، حافظ على سرية الأمر ولم يخبر أيَّاً من معارفي بحقيقة ما جرى، لكنَّ المريب هو أن "عبد اللطيف" أخفى عنه موضوع السرطان ، ألهذه الدرجة هو رجل يفي بوعوده؟

يمُرُّ يومان باردان لي بالمنزل لا أرى فيهما أحداً ولا أسمع أحداً، حتى ملامحي لا أذكرها، أشغل نفسي بالوقوف أمام نافذة غرفتي أو الخروج لشرفتها للجلوس في البرد، من أجل استنشاق هواء الشتاء الذي أعتبره نمير الروح، كثيراً ما تثير رائحة الشتاء في نفسي غربة شديدة، أشعر معها كأنني طيرٌ مهاجر يركب رياح الشمال مسافراً صوبَ ينابيع الدفء، يعاند رغم أنه رأى رفقاء له يسقطون من قبل في شباك تشرين

العنيـدة، زادُه فـارغ إلاَّ مـن رغبة ملحـة في الوصول وبضع خفقات وئيدة، ولا يدري هل حين يصل سيجد الثلج قد دفن الزهر وجمد الحَب؟ أم سـتفتح له الـروابي الخضراء ذراعيها، لكنه يثق في أن الهجرة قدره، الرحيل دائماً قدر الغرباء.

في الثامنة من مسـاء اليوم الثالـث، وبينما أنا جالس أمام المدفـأة، أهيم في عـزف مقطوعة "cold" لجـورج مانديز، والكمان تسـكب شـجنها على مشـاعري كعطر كئيب، إذ بي أسـمع صوت جرس الفيلا، وألمح "كامـل" يفتح فيدخل آخرُ إنسان أتوقع حضوره في هذه اللحظة، الدكتورة "ريماس".

يتصلَّب القـوس فوق الوتر، كأنه يندهـش، بينما يُضيّفها "كامل" وتطلـب منه إعداد قهوة بالبندق وهي تقترب مني، تحيِّيني وتجلس بالمقعد المقابل لي وتعترض بابتسامة بسيطة:

-بطلت عزف ليه؟ هو حضوري طرد الالهام.

أرتبك باحثاً عن رد يُعفيني من الحرج فأقول:

- لا طبعا بس خير في حاجة جدت بخصوص حالتي ؟

تبتسم وتقول:

- لا متقلقش انا مش جايه المرة دي بصفتي طبيبة.

أتأمَّلها كأنني أراها لأول مرة، في ملامحها ابتسـامة دهشة مثيرة، حاجباها مُقوَّسان مرفوعان عن عينيها، وزاويتا شفتيها معقوفتـان لأعلى قليلاً ، تبدو مبتسـمة دائماً حتى إن لم تكن كذلـك ، أندهش حينـما أراها تفك حجابها وتطلق شـعرها الأسـود الناعم على حريته فينفلت ملتفاً حول عنقها الطويل، وبالطبع تقرأ ذلك في قسَمَاتي لكنها بدلاً من أن تمنحني تفسيراً مُريحاً ، تسألني سؤالاً عجيباً :

- ايه رأيك فيا بقى؟

أتوتَّر مع سؤالها المُدهش، وأسأل :

- من ناحية ايه؟

- شكلي .. شخصيتي .. كده؟

أستحي من السؤال لكني لا أجدُ مهرباً من إجابتها :

- انت مهذبة جميلة و..

- تتجوزني؟

لا تكادُ تلفظها إلاَّ وأجحَظُ متعجباً ، الحوار سار على وتيرة صاعقة ، أنفاسي أخذت في التلاحق بشـكل جعل من التقاطها أمراً شاقاً.

- إيه مش عاجباك؟

- لا بس مش فاهم ...

- مش فاهم ايه؟ آه قصدك علشـان يعني أنا اللي جيتلك وعرضت نفسي عليك.

أمسـح عرقاً لا أدري كيف نشـع من جبهتي في هذا البرد وأردُّ :

- لا بـس أحنا مفيش بينا أي علاقة تخلينا نقرب من بعض للدرجة دي.

- بيتهيء لك، أنا اعرفك من زمان قوي، حضرت لك كتير في الساقية ومتابعة عزفك كويس، ولو فتحت صفحة "مقامات" على الفيس هتلاقيني عامله اعجاب ومشـاركة لكل اللقطات والمقطوعـات اللي فيهـا عزفك الصولو، كمانجتك بتسـحرني لدرجة اني مسجله كل مقطوعاتك على فلاش ميموري وبشغلها على طول في العربية.

أفهـم من كلامها سرَّ اهتمامها بي أثنـاء فترة مرضي فأعود لأواجه معها حقيقة موقفي : بس انا هموت؟

تعتدل مائلة بجذعها نحوي وعلى ملامحها يرتسم الاهتمام، رغم لمحة الابتسامة المريحة للنفس التي تملكها :

- هتموت امتى؟

- قريب؟

- أيوه امتى؟

- مش عارف بالظبط لكن بعد أيام.

- طالما مش عارف يبقى المطلوب منك تفكر في اللي تعرفه، فكر في الحياة.

- أنا رهن الموت، الحياة بعيدة عني جدا.

- هي ايه الحياة بالنسـبة لك؟ السـنين والشـهور والأيام والسـاعات؟ الأوقات يا نبيل ملهاش أي قيمة لو انت انسـان معـذب، بالعكـس لحظة سـعادة واحدة ممكـن تفضل في ذاكرتك أكتر من عمر كامل من الوجع.

- بس الوجع بيعلم جوانا اكتر.

- احنا اللي بنسـمحله بكده، اختياراتنـا هي اللي بتخلينا نتوجع، علشان كده حياتنا كلها ممكن تتغير باختيار جديد.

تعجبني نبرتها وأسـتملح معنى الكلام لكنـي لا أقتنع بما تقول، ما ذنب شـابة مثلها أن تحمـل لقب أرملة في أقل من شهر؟ كما أنَّ هناك شـيئاً مريباً لا أفهمه بشأنها: أي مصادفة

تلك التـي قد تجمع بين كونها أحـد معجباتي وبذات الوقت طبيبتـي المعالجة ؟! وبـذكاءٍ يتَّقِدُ في عينيهـا اللامعتين نظرا حيرتي فتجلي لي الغموض الذي يكتنف الحكاية برُمَّتِها:

- أنـا عارفه اللي بيدور جواك وعموما انا اسـمي بالكامل ريماس عبد اللطيف الكردي.

اسـمُها يفـسِّر كل شيء، إذن هـي ابنـة الدكتـور "عبد اللطيـف" ، دموعها وقت إعلانه عن مصـيري لم تكن دموع طبيبـة متعاطفة مع مريضها البائـس، بل نزيف امرأة يموت أمامها الرجل الذي تحبه ، لكن هل يملك الحب إحياءَ الموتى؟

تُجيـب الأيـام الثلاثة التالية عـن ذلك، تتعـدَّد مقابلاتنا وزياراتها وتصارحني خلالها بحبها على اسـتحياء ، رغم غرابة الأمـر أن تطلب منك فتاة الـزواج منها قبل أن تعلن لك عن حبها، واقع مقلوب لكنه أعجبني.

***

- 4 -

يتـم زفافنا في ثمانية وأربعين سـاعة فقط ، وأول ما تطلبه منـي "ريماس" هو أن ننتقل للعيـش بالمربط ، وهناك حيث الكوخ والمدفأة والخضرة والسماء المفتوحة والمطر، أدخل جنة الخلد.

- أنا بحب المطر قوي يا نبيل ، نفسي تبوسني تحت المطر.

- أبوسك قدام الخيول والعمال؟

- قدام العالم كله.

الحياة بالمربط شاعريَّة بصورة أروع ممَّا أتصور، والأيام تمُرُّ سريعاً، أسرع كثيراً من المعتاد ، لم تمنعني قدمي المكسورة عن الحركة، أو أشعر بسببها بأي عجز على الإطلاق، روح "ريماس" المنطلقـة لا تكفُّ عن نـثر البهجة من حـولي، كأنها أقحوانة ربيعيـة، أو عطـر أثيريّ يصاحبنـي أينما ذهبـت، يمكن أن توصف كترياق للبهجة ، ابتسامتها رقصة حالمة على موسيقى الفالس، وعناق عينيها السوداوين لعينيّ الخضراوين تعويذة سحر حلال ، حينما قَبّلتُ بشفتيّ الفائحتين بالقهوة الفرنسية شفتيها المصبوغتين بالشـوكولاتة ذقتُ نشوة لم أذق مثلها في حياتي ، تفاصيلها توقد في نفسي كل مفردات الرجولة، إحساسي بها ممتع وغامض، كأنني أنسـاب داخل روح أخرى، كأنني في

حالة عناق دائم لا يتوقف، وضمة دافئة في ليلة شتوية باردة.

- نبيل انت لازم تنجح، لازم تحقق حلمك وتهزم كل الفشل اللي حاصرك في حياتك.

- أنا مش موهوب يا ريماس، وفي كل الأحوال مش هلحق! وحتى لو لحقت، ايه أصلا فايدة نجاحي وانا ميت؟

أقولها بابتسامة تحمل مرارة، فتمسكني من ذراعي وتشجعني :

- أنت موهوب وأنا متأكده انك هتقدر تنجح في الحاجة اللي بتحبها.

- قصدك الكمان؟

- بالظبط، أنا عايزاك تفهمني فكرة عمل الكمان.

أحضر الكمان الشرقي وأشرح لها كيف أنَّ لها أربعة أوتار، تصدر نغمتين أساسيتين، صول و ري، تصدران أربعَ طبقات، صول غليظاً وري اعتيادياً، وصول رفيعاً، وري رفيعاً حاداً، أربعة أوتار لم تنجح ألحانها في محو أثر أربعة أصابعَ دائماً ما وشمت وجهي بالفشل مع كل صفعة من صفعات أبي ، أما فشلي الخامس ، الحب ، فقد أزاله حبُّها لي، كما أنبهها أيضاً إلى أنني لست مبدعاً بل مجردَ مقلد، إنما لا تقتنع تعارضني

بشدة قائلة:

- بالعكس انت موهوب جدا، ثم تقترح: انا عندي فكرة، إيه رأيك تعمل لحن لحياتك؟

- مش فاهم!

- يعني تعمل نوته تعبر عن ذكرياتك، لو ذكرى جميلة تبقى نغمة صول غليظ مثلا أو ري حاد، ذكرى عادية ري اعتيادي، ذكرى مبهجة ري ناعم وكده.

تُنير فكرتها بداخلي آلافَ المصابيح، بل تتوهَّج كشمس نيسان ، إنها عبقرية بحق ، لماذا لا أسجل لحظات حياتي في شكل نوتة موسيقية؟ أستجيب لها بشغف فأحضر كراس الموسيقى والأقلام، وأبدأ في استدعاء ذكرياتي حُلوها بمرِها، أدوِّن السلالم الموسيقية والعلامات ، أصلح وأعدل ، بينما هي بجانبي تدعمني ، كتبتُ أغلب اللحن ونحن جالسان أمام المدفأة متدثرين بغطاء واحد، وممتزجين في روح واحدة ، يبلل صوت المطر بالخارج حكايتنا بطراوة العشق.

ثلاثُ ليالٍ تمر كأمتع ما تكون الحياة ، وتنقضي بأن أضعَ علامة الـ"ري" الأخيرة وأتوقف، تتلاقى أعيننا لحظتها فتعانقني وتقول:

- مبروك يا حبيبي، هتسمي اللحن ايه؟

أفكر ثم أجيب بشكل عفويّ : هسميه "قبل الرحيل".

ولأول مـرة تبـكي ، تضـع كامـل رأسي في حضنهـا فتنهار وترتجف .

- ربنا يخليك ليا وميحرمنيش منك أبدا يا حبيبي .

أعزف لها اللحن بالكمان مـرة والبيانو مرة ، فيخرج كئيباً حزينـاً في بدايته ثم سرعان ما يصطخب كموج البحر قبل أن يتهادى كنسمة حانية تداعب خدَّها ، أنتبه أن نغماته تثير في النفس خليطاً مدهشـاً من العواطف الإنسـانية ، حينما أرى خدَّها يتلون مع الإيقاع من شدة تأثرها به.

يُذهلهـا جـمالُ اللحـن ورقتـه وعذوبته، تقسـم لي أنه رهيب وأنهـا لا تجاملني، وتصمـم أن ترفعه بنفسـها على Soundcloud وتجتهد في مشـاركته على مواقع التواصل الاجتماعـيّ ، وخلافاً لكل التوقعـات ينتشر اللحن بصورة غير مسبوقة، يتفشى في الشوارع وبين الشباب يتردَّد من سماعات الرأس وعبر الحاسـبات والأجهزة الذكية، ينسـاب إلى القلوب قبـل الآذان، ثـلاثُ دقائقَ وخمسُ ثوانٍ فقـط تحقق في أيام مائتي ألف متابعة ، يحتشـد المتابعون على حسـابي في تويتر وأحقـق نجاحاً مُبهـراً، الكل يثيره الفضول لسـماع مقطوعة

العازف الذي سـجل حياته في نوتة موسيقية، رأيت فتاة تبكي في بدايتـه وتتوتـر في منتصفه ثم تبتسـم ودمعتها لازالت لم تجـف في نهايته ، إعجازٌ موسـيقيٌّ مثير للمشـاعر كما قالت "ريـدا" وهي تهنئني عليه في التليفـون ، على غيرة ملحوظة من "ريماس" التي كانـت تعلم جيِّداً أنَّ هناك نبضة في قلبي لا تمتزج بنبضاتها، نبضة لا معنى لها إلاَّ أنَّ هناك من تشاركها قدراً من مشـاعري، حتـى وإن كان ضئيلاً، وبالطبع لا يحتاج الأمر لذكاء أن تفهم أنها ريدا؟

لكـنْ كلُّ هذا النجاح وهذه السـعادة تنتهي حينما يحين موعد الموت ، وأسمع أجراسه تدق فوق أرقام رزنامة التقويم، بقي من الزمن يومان فقط ... ثمانية وأربعون ساعة.

***

- 5 -

الحبُّ يغير طعم الأشـياء، فحتى لو كنا على شـفا الموت، يمنحنـا بهجة اسـتقبال الرحيل، لا شـك أن فقدان من نحب يكون قاسـياً، لكـنَّ يقيننا بأنَّ هناك من سـيوافينا إلى الضفة الأخرى من الوجود، يمنحنا قناديلَ من أملٍ ينادي باللقاء. كلُّنا سنرحل في النهاية، المهم أن تتعارف أرواحُنا وسط ضياع أعمى من أن تحدَّه المصادفات.

أمـوتُ غداً، تلك هي آخر النهايات التي ترفض أن تسـلم لواقعي المهزوم، لكني سـأجبرها على رغبـة مني هذه المرة، قـررت أن أنفض كل علائق الذكرى المتشـبثة بثوب حكايتي، قبل أن تخط سطرها الأخير، قررت أن أعرف محتوى الوديعة.

أدخـل HSBC فتسـتقبلني "نرمين" ببشاشـتها المعتادة، تعرَّفـتُ عليهـا أكـثرَ في فترة مـرضي، زارتني عـدة مرات في المستشفى ونشـأت بيننا صداقة هادئة راقية، كذلك حضرت عقد قِرَاني على "ريماس".

تندهش حينما أطلب منها فتح الوديعة :

- أخيرا قررت؟

أبتسـم وأومِئُ لها برأسي : أن نعـم ، فتعاونني على إنهاء

الإجـراءات، ثم تقودني إلى مسـتودع الخزانات، تدس المفتاح في خزانتـي الخاصة، وتنسـحب لتغادر في خطـوات رصينة، تتركني لأواجه الوديعة مرتعشـاً كالجَرْو المُبتلّ، ما الذي تركته لي أيهـا الرجل القاسي؟ أتمنى من كل قلبي أن تُقيم ما كسرته مـن أركاني قبل أن يتولى المـوت هدمها من جديد، على الأقل سـأغادر هذا العالم من دون مُضغة الكراهية التي تخثرت في قلبي تجاهك.

أدير المفتاح وأفتح باب الخزانة الصغيرة، أسحب صندوقها الثقيـل وأحملـه لأضعـه على الطاولـة الممدودة في وسـط المستودع، أكشـف عنها الغطاء في بطءٍ متوجساً ، ولا أصدق ما أراه ، يصعقني المحتوى لدرجة أن أنتفض، لا أتصور أنه قد ترك لي هذا الشيء بالتحديد، المسـدس "الجلوك" ومعه ورقة مطويـة ، تتدافع دقات قلبي فأشـعر به يتضارب بين أضلعي كأنّه مطرقة طائشـة، أحمل المسـدس بيد مرتعشـة وعينين متصلبتين من الذعر، ففي تلك القطعة الصغيرة تسـكن أبشع ذكرياتي.

- ركز في الشاخص يا نبيل.

يقولها أبي فيما يحـرّك ذراعي الأيمن القابض على الطبنجة إلى اليمـين قليـلاً ، ويطبق أصابع يدي اليـسرى فوق اليمنى

القابضة على السلاح.

- اكتم نفسك واضرب أسفل منتصف الهدف.

أطاوعه وأفعل ما يريد فتنطلق الرصاصة بدويّ هائل وأندفع للخلف ، لكنّي لا أصيب الهدف ، ينخلع كتفي فيؤلمني وأشاهد الاستياء يلوح على وجهه، وهو يعنفني .

- هو انت مفيش فايدة فيك؟

وقتَها كنتُ في الرابعة عشر وكنت أشعر بضياع كبير، موت أمي كان بمثابة فقدان شامل للأمان، لم أكن أحس بأي استقرار نفسيّ أو ارتياح من أي نوع، دائماً خائف ومضطرب، أتردد قبل أن أفعل أيَّ شيء مهما كان بسيطاً وعادياً، خوفًا من رد فعل أبي العنيف، وكأنَّ منسوب الاستقرار في شخصيتي اضمحلَّ إلى حَدّه الأدنى ، فصارت مثل لجّة رقيقة ، مجرَّد هبوب خفيف لنسمة رقيقة كفيلٌ بأن يبعثر استقرارَها النفسيّ .

لكنَّ أبي - وكعادته - لم يقبل بفشلي ، هو لم يكن يستسلم.

يعود فيصطحبني إلى ميدان الرماية بالمربط مرة أخرى، يجتهد في تدريبي ريثما يراني أتحسَّن قليلاً ، على الأقل أستطيع إصابة جزء من الشاخص ، حتى وإن كان على هامش البُقعة السوداء.

يقرر بعدها تدريبي على التعامل مع السلاح ، فكّه ، تركيبه ، تنظيفه، بالإضافة لإخراجه من جيبي بشكل مدروس وخاطف للدفاع عن نفسي ضدَّ أي اعتداء مفاجئ ، وفي صبيحة يوم بارد ، يقتادني من ذراعي إلى الورشة المبنية على هيئة عنبر من الصاج ، مقام على مسافة خمسمائة متراً تقريباً من الكوخ، ندخلها فإذا بها متخمة بالعدد والأدوات الحديدية الغليظة، مناشير ومطارق وقطّاعات وحفّارات بمختلف الأنواع والمقاسات، يشغلني انهماك العمال في إصلاح جرَّار زراعيّ عند باب العنبر الخلفيّ، كيف يشحمونه ويجربونه ويملؤون فنطاسه بالسولار، وكيف تصعد منه رائحة مثيرة للغثيان، هي خليط بين الزيت والشحم والسولار، أتساءل : ما الذي يدفعهم للقبول بهذا العمل المقرف؟ ربما هم فقراء!

نصل إلى طاولة خشبيَّة خشنة تقف على أربعة أرجل في المنتصف تماماً من العنبر، تحتها ينحني أبي ويسحب صندوقاً خشبياً ثقيلاً، ألحظ على أضلعه حروفاً إنجليزية متناثرة تشكل أسماءً عِدَّة لدولٍ أجنبية ، يبدأ في فك مُفصَّلاته الحديدية ثم يستخرج منه قطعة سلاح صغيرة، ترقد وسط العديد من القطع الأخرى الأكبر، يزرعها أمامي على الطاولة بعنف يحدث دويّاً، ويحذرني مشيراً بإصبعه:

- انا مش دايم لك، وانت غني ولوحدك وده هيطمع فيك

الناس، علشان كده لازم تتعلم ازاي تحمي نفسك، فاهم؟

- بس احنا عندنا حرس.

لا أكادُ أقولها إلاَّ ويشتعل غضبُه ، أرى في عينيه الاحمرار والجحوظ وهو يجزّ على أسنانه ، ويقرّعني بصوت أقرب للفحيح :

- انت عايز تعيش طول عمرك معتمد على غيرك؟

أنكمش وأطرق برأسي محاولاً حبسَ دمعة انكسار تتكوَّن حول حوافِّ عيني، حينها يرفع رأسي براحته مشيراً للسلاح :

- بص هنا، ده سلاح جلوك 9 مم نمساوي موديل 22، هاعلمك ازاي تفكه وتركبه، ركز معايا في كل كلمة هقولها علشان هسألك لما أخلص، وإياك متعرفش تجاوب أو تغلط، فاهم.

أومِئُ له برأسي واجماً ، بينما يبدأ في الشرح ، يشير بأصبعه إلى اليد ويقول: دي القبضة اللي فيها خزنة المسدس، وبيتقال عليه مسكه برده، ودي السباطه اللي هي الماسورة والسِنّ اللي فوقها ده سن نملة الدبانة، وينقل إصبعه إلى الأجزاء ويقول: وده المشط. فاهمني؟

- فاهم.

- أول حاجه هنخلع الخزنة اللي فيها الخرطوش.

يفك قِفْلها الصغير، ويسحبها للأسفل، ثم يضعها على الطاولة ويستكمل:

- بعد كده هنتأكد ان مفيش خرطوشة بايته في السبطانة.

يشدّ الأجزاء للخلف والأمام سريعاً فتصدر حكّة معدنيَّة عنيفة، وتنفر منها طلقة تتدحرج على الطاولة لتسقط بعيداً ، يتجاهلها ويحذرني بصوت أجشّ ، ونظرة حادة :

- الخرطوشه اللي في السبطانة دي أخطر حاجه، لازم تتأكد إن المسدس فاضي، مركز معايا؟

- آه.

- بعد كده نعلق الزناد.

يعيد الزناد للخلف حتى يثبُتَ على وضعه، يفتح قفل التفكيك الصغير عند زاوية اليد، قبل أن يسحب أجزاء السلاح بسبابته وإبهامه للخلف قليلاً ثم للأمام بقوة فينخلع المشط تماماً من القبضة ، يمسك المسدس ، بعد أن صار قطعتين منفصلتين ، على راحتيه ويعرضهما لي :

- كده طلعنا المشط بره، وقلب المسدس بقى مكشوف

قدامنا، هعملها قدامك تاني.

يركبهما ويعيد الكرّة، ثم ينتقل للمرحلة التالية ، يخرج السوسته والماسورة فتصير كل قطعة من المسدس على حِدة ، يفرد القطع على الطاولة من أمامي ويقول :

- كده المسدس اتفكك كله، ركّز بقى معايا ازاي هنركبه، عمليه عكسية تمامًا، خطوة بخطوة، اللي انتهينا بيه هنبدأ بيه.

يُعيد كل شيء إلى سيرته الأولى، يُركّب الماسورة والسوسته، يعشق المشط في مجراه ويسحبه للخلف سريعاً ليتشبث بمكانه ، يحرر الزناد ، ثم يعيد الخزانة إلى مكانها، ويطبق براحته على قاعدها لتبيت داخل القبضة تماماً، تثبُت فيلقم الماسورة بخرطوشة جديدة ، يستخرجها من علبة تشبه علب الثقاب الكبيرة ، ويقول:

- انت فهمت انا عملت ايه؟

أجيبه متعجلا: آه

- طيب قولي أنا عملت ايه.

- عملت العكس.

وأسمّع له ما أحفظه مِمَّا رأيتُه يفعله فيُومِئ لي برأسه كنايةً عن الرضا، قبل أن يمسك بكفي السمين ويضع السلاح في بطن راحتي .

- طيب فكك السلاح بنفسك.

أتبادل النظر بينَه وبين السلاح المستقِرّ في كفّي، فينتبه لنظرتي الزائغة المضطربة ، فيحذرني:

- ركز وفوق لنفسك، امسك السلاح كويس.

أُبرّق عيني لأثبت له أنني منتبه وأنفذ ، أفتح قفل الخزانة، أنزعها بارتباك، فيعزز فعلتي: كويس شاطر كمل .

أستشعِرُ انقباضاً شديداً في أوعيتي الدمويّة، كأنَّ شيئاً مَّا يُهيِّج جهازي العصبيّ، أتأهَّب فأضع سبابتي على الزناد لتثبيته للخلف ، لكنّه يستوقفني بكفه صارخاً:

- استنى.

أفهم أنَّ ثمة خطأ فيما أفعله، لكن بعد فوات الأوان، يواصل إصبعي الخائف تشبثه بالزناد ويتراجع مُطلقاً الرصاص، ينفجر الدم أمام عينيّ فيستحيل العالم كلُّه إلى بقعةٍ حمراءَ لزجة، تلطخ سطحاً زجاجيًّا ، ما هو إلا عدسة عيني ، أُبصر من خلف الأحمر القاني العُمّال ظلالاً سوداءَ تُهرَع إلينا وأراهم يحملون

أبي ويجـرون به بعيداً ، يذوبـون جميعاً في الدم وأنا متصلب في مكاني مشدوهاً.

يُشَلُّ كفّهُ الأيمن.

تنفُـذ الرصاصة الطائشـة منـه، فتكسر عظامـه وتقطع شعيرات عصب الـMedian ، فلا تنجح العمليات الجراحيّة في وصل أطرافها لدقتها الشديدة.

وبالطبع لم يكن الأمرُ سهلاً ، الشلل بالنسبة لرجل اعتاد أن يفعل كلَّ شيء بيديه لا يختلف كثيراً عن الموت.

أمُرُّ بحالة نفسـية ترعبني، أعيش فترة كئيبة يسـيطر عليّ فيها هاجسٌ مُخيف، أنه يتربص بي، ويتحيَّن الفرصة المناسـبة لإيـذائي، أعاني ليـالىَ طويلة من الأرق خوفـاً أن يهاجمني أو يقتلني، لكنه لا يفعل، بل أفاجأ به يتدرب على استخدام يده اليـسرى في كل شيء، يأكل بها، يشرب بها، يلعب كرة المضرب، يُصلِح الأشـياء التالفـة بالمنزل، لدرجـة أن أراه ـ قبل أن أتمَّ السادسـة عشر ـ يرسـم شـكلاً دقيقاً بأقلام التحبير الرابيدو لجهاز طبي يُستخدَم في علاج الخيول، ويظلله بمنتهى المهارة.

لحظتَها فقط تبدأ الألوان في صبغ أسْوَد حياتي، قليلاً.

أنخلع من ذكرياتي عن السـلاح كمسـمار اقتلعته كمّاشة،

أمُدُّ يدي فألتقط الورقة المطويَّة وأفردها لأقرأها :

- "الوقت اللي هتفتح فيه الوديعة هكون في ذمة الله، أنا عارف انك بتكرهني، وأنك عمـرك ما هتفهم اني كنت بعمل كل ده علشـان مصلحتك، وعـارف ان كل محاولاتي معاك في حياتي فشلت، علشان كده هحاول اصلحك لحظة موتي، وبعد موتي، مش هيأس حتى وأنا ميت.

الفرس "كحيل" عجّز ومرض، كل يوم بيمر عليه بيتألم أكتر من اللي قبله، حلّه الوحيد إنك ترحمه وتنهي حياته، وبنفس المسـدس اللي صبتني بيه زمان، فاكر المسـدس ده؟ هي دي الطريقـة الوحيدة اللي هتخلصك من كل مركباتك النفسـية، الوقت اللي هتقتل فيـه الفرس هتوصلك كل الصور ومقاطع الفيديـو اللي فيها ذكرياتك مع أمك واللي كنت برفض اخليك تشـوفها علشان شخصيتك تسـتقل، لكن لو أتأخرت في فتح الوديعـة والفرس مات، أو مقدرتش تنفذ وصيتي دي لضعف في نفسك أو كراهية منك ليا، الملفات دي مش هتوصلك أبدا، وهكون فشلت في اصلاحك للأبد" .

تنتهي الرسالة فأفرمها بين قبْضتي وأعتصر قبْضة المسدس ، صدري يصعد ويهبط من التوتر، أرفض أن أطيعه أكره سطوته وصلفه، وبذات الوقت أشـتاق لرؤيـة مقاطعي القديمة مع

أمي، بالأخير يهزمني الشغف وتهزمني دفقات الحنين ، أدُسُّ المسدس في ظهري، بين القميص والبنطال، وأستره بالجاكيت وأغادر فوراً إلى المربط.

- العمر المديد ليك يا أستاذ نبيل الفرس مات من يجي سنة.

يصدمني عم "سلامة" بالخبر وأنا أقف أمامه في حظيرة البوكسات، كأنه يلكمني، أسافر في ملامِحِه المتشققة القديمة كالتائه، أفهم أنه يستشعر معاناتي لكنه يحتار فيما يجب عليه أن يقول ، يُؤثر الصمت حتى يترك لي الفرصة للتفكير.

أعودُ وأسأله بصوتٍ مختنق:

- طيب مفيش فرس تاني عجز وبيتوجع من المرض؟

يشيح بذراعه بعيداً ناحية الميدان ويطمئنني :

- الخيول كلها بخير والحمد لله وبترمح زي الرهوان في الميدان اطمن على الخيل يا أستاذ "نبيل" أنا حافظ وصية الغالي، ومخلي بالي منهم، هو الأستاذ صلاح مش بيبلغ حضرتك ولا إيه؟ ده احنا لسه مطلعين شهادة نسب للمُهر بطران من كام يوم؟!

لا يعنيني كلُّ ما يقوله ، ينطفئ صوته من مسامعي كأنَّ

أفكاري تتنصَّل منه، فقط أفكر كيف أنفذ تلك الوصية وكيف يمكن أن أصل إلى الملفَّات، لابد أنه قد تركها مع أحد من معارفنا المقربين، لو كان كذلك فسيكون من السهل الوصول لها فهم قليلون، أبي خسر الكثير من أصدقائه بسبب تزمته واهتمامه بدقة المواعيد وكراهيته لكلمة "معلش".

أصرف "سلامه" بهدوء لا يعكس التوتر الذي يمور بداخلي، فيطيعني وينصرف من الحظيرة إلى ناحية الميدان، أسمع صيحاته وصفيره المعتاد للخيول، فأتبعه إلى الخارج، حيث الهواء الطلق والمروج الزاهية والسماء المفتوحة، أتصل بصلاح:

- الو ... ازيك يا صلاح ... الوالد ما سابش معاك حاجة ليا وطلب منك تدديهالي بعد ما يموت؟

- ايه الكلام الغريب ده يا نبيل؟

- طيب مطلبش منك أي حاجة تانية؟

- كل اللي طلبه مني أني احجز لك عند الدكتور عبد اللطيف كل سنة علشان يعملك تحليل شامل، كان عارف إنك بتسمع كلامي وبتثق فيا.

- يعني مجبش سيرة الفرس "كحيل" خالص؟

- كحيل!!!

بـدا أنه لا يعرف عـن أي شيء أتحدث، مـا يعني أنّ أبي لم يـترك الفيديوهات والصور عنده ، فأيـن تركها إذن ؟ أكاد أجَـنُّ وأنا أتمـشى في المربط ، ترافقني أصـواتُ حوافر الجياد وهي تركض بانطلاق في باحة الميدان الواسـعة، بداخلي حالة فوران مخلوطة بغمّ ، حتى مجرد التفكير يعذبني، لكنّي رغم ذلـك أصل إلى قرار سريع فأسـتقلُّ سـيارتي متجهاً إلى عيادة الدكتور "جلال"، أسـتحلفه بكل غـالٍ عنده أن يخبرني بمكان تلك الأغراض لكن ردّه يأتي مُحبطًا:

- يا نبيل يا ابني ان لو حاجه زي دي عندي كنت هديهالك فورا، هخبيها ليه؟

بائسًـا وحزيناً أتركه لأذهب إلى الدكتـورة "نسرين"، إنّما تنفي هي الأخرى معرفتها بمكان الملفّات :

- انـا حاولت مع مصطفى كتير انـه يديني الحاجات دي وكان دايما بيرفض، أخر مرة قالي انه حرقها.

تنتابني حالة يأس وشعور قاتل بالهزيمة ، طرقتُ كل السبل ولم أصل لشيء، ليسـت عند أي من أصدقائه أو معارفنا فأين توجد؟ أجرى وسـط ممرّات ذاكرتي المحفوفة بالأشواك ، لعلّي أصِلُ إلى إجابة ، لكني أجدها مثل متاهة معقدة ، اكتشـافها يستغلق عليّ أكثر كلما أوغلتُ أكثر، الحل الوحيد هو أن أُحلّق

فوقها، مشاهدة ذكرياتنا من بعيد تمنحنا السيطرة عليها دون أن نغرق في سـطوة التفاصيـل، التفاصيل دائماً مـا تجرُّنا إلى دوّامات الوَجَع، تسقينا من لُجَجها لنعطشَ أكثر ونتجرَّعَ أكثر فنخضعُ لها أكثرَ وأكثر.

"كذبـك حلو، يا أول كذبة صدقتها في حياتي، كذبك حلو يا أحلى كذبة واخترتها بذاتي" ...

تنتزعني نغمة اتصال "ريماس" من أفكاري، لا زلتُ لا أدري لماذا تحب أغنية ميادة بليسيس تلك ، أتمالك أعصابي وأرد :

- ازيك يا حبيبتي.

- ازاي يا حبيبي، انت فين؟

- أنا خارج من عند د نسرين.

- خير؟

- كنت بزورها.

- طيـب انا كنت قلقانه عليـك لأنك مقولتليش انت رايح فين، كنت فاكراك في المربط .

المربط .. نعم ، كل دهاليز ذاكرتي تُفضي إليه ، تسـطع في ذهني وَمْضة خاطفة عن غرفته الخاصّة في الكوخ وكيف كان

حريصاً على تأمينها، كان يضع لها كاميرا مراقبة خاصَّة فوق الباب، لابُدَّ أنها مستودعٌ هامٌّ لأشيائه الخاصَّة ، أنهي المكالمة وأعود إلى المربط سريعاً فأقتحمها ، أندهش حينما أجدُها مرتبة أنيقة كأنه لازال يعتني بها ، أي رجل كان؟ أشرَع في التفتيش في الخزانات والدواليب بعبث وفوضى كبيرة ، لكنّي لا أجد شيئاً، أزداد عصبية، فأجلب مطفأة الحريق وأكسر خزانة المكتب، أعثر على كاميرا الفيديو اليدوية الصغيرة بداخله، يرقص قلبي طرباً لمرآها، ألتقطها وأفتح منفذ شريحة الذاكرة سريعاً ، لكنْ يخيب أملي حينما أجدُه فارغاً لا شيءَ به، أضغط زِرّ باب الكاميرا فينفرج بانسيابيَّة ، وأيضاً لا أجدُ به الشريط الصغير، لا شيءَ بالكاميرا، لا شيءَ البتَّة.

يشتعل الغضب بداخلي حتى تنفلتَ أعصابي تماماً ، هذا الرجل لم يكنْ إنساناً بل شيطاناً حقيقيّاً ، أنتزع السلاح من ظهري وأصوِّبه إلى صورته الصغيرة، المُعَلّقَة في منتصف جدار الغرفة الخشبية، وبنفسٍ مُغتاظةٍ وأصابعَ متوترةٍ أضغط الزناد، لكن الرصاصة لا تنطلق ، أضغط بمنتهى القوة ولا تنطلق، هذا السلاح الغبيّ يأبى أن يستجيب كأنّه يتعاطف مع سيد قديم امتلكه ذات قسوة، أنفضه في يدي وأفضُّ الخزانة فأتلقى مفاجأة جديدة ، الخزانة خالية من الخرطوش، ليس بها ولا طلقة واحدة، كيف كان يتوقع أن أنهي حياة الفرس إذن؟

أشدُّ أجزاء المسدس بعنف وغضب، ومن أمام عيني ينفلت من بيت الماسورة آخِرُ شيء أتوقعه ، شريحة ذاكرة USB صغيرة، تطير في الهواء حرة مندفعة، أشخص ببصري مُتابعاً مسارَها كأنه مشهد يُعْرَضُ بالبطيء، تسقط على المكتب متقافزة فوق سطحه لثوانٍ وبالأخير تقع على الأرض، أزحَفُ تحت المكتب لألتقطها وأمتلكها في راحتي.

يا الله!! ترك لي الشريحة في ذات المكان الذي تسبَّبَ في شلل يده، كأنّه كان يطلب مني أن أتخذ القرار! فقط أتخذ القرار! تصرف ماكر من ذئب كبير.

ألتقط أنفاسي وأنحي تفكيري عنه جانباً ، وأركض بالشريحة إلى سيارتي، أدسُّها في "Apple mac" لأستعرض محتوياتها، ينبثق برنامج الـ QuickTime""مُحتفياً بالمحتوى بين أحضان إطاره، ينتقى لقطة تغترف من الحزن وجَعاً ، أظهر فيها فتىً صغيراً لم أكمل عامي العاشر بعد، أجري متخبطًا على أرض المربط الخضراء الواسعة داخل مشهد متأرجح للكاميرا، ومن خلفي أمي تطاردني بينما صدى ضحكاتنا السعيدة يتردَّد عالياً، أنهار حينما أراها ، تغالبني أحزاني فتصرعني وأبكي ، أبكي حتى يلتقي سيل دموعي بانشراح ابتسامتي ، أظنُّ أننا خلقنا من الماء كي نتعلم البكاء ، لذلك نشعر بالحنين للمطر والبحر، فهما يهمسان بالشجن داخل قرارنا المكين.

تتـوالى اللقطات غـيرَ منتظمـة ولا مرتبـة ، فيثقل الألم ويتكاثـف الحـزن ، تتحول عضلة قلبي إلى إسـفنجة رهيفة، تشرب من عُصَارة الوجع دون أن تشـبع، إلى أن يأتيني الملف السـابع بمفاجأة غريبة، يظهر أبي في سرير موته ملتفّاً بملابسَ ثقيلـة ، على اليمين منه يجلس الدكتور "عبد اللطيف" وعلى اليسـار يجلس الدكتور "جلال"! أعتدل وقد جذَبَ ما يحدث انتباهـي، إذن أبي يعرف الدكتور "عبـد اللطيف" عن قرب، أظن أن هذا يفسر الكثير، أرفع من درجة صوت الملف، وأبدأ في تَسَمُع الحوار :

- أنا مش هشترك في الموضوع ده يا مصطفى.

- ده الحل الوحيد اللي قدامي يا جلال، عندك حل تاني؟

يتدخـل الدكتـور "عبد اللطيف" : وانـت ضامن رد فعل الولد يا مصطفى؟

- ابني مش مقدر قيمة الحياة وده الحل الوحيد قدامنا.

يعـترض "جلال": يا مصطفى نبيل حـاول ينتحر قبل كده انت ناسي ولا ايه؟ افرض عملها تاني؟

- الـلي بيبقـى فاضله من الحيـاة أيام مسـتحيل ينتحر، بالعكس ده بينـدم على كل اللي لحظها ضيعها من عمره، أنا

حاسس الإحساس ده دلوقتي .

يتدخل "عبد اللطيف" مرة أخرى :

- ابنـك تفكيره غير تفكـيرك، نبيل عنده ضغوط نفسـية كتـير، ولو خدعناه وقلنا له ان عنده سرطان وفاضله أيام مش هنضمـن أبدا رد فعله، ممكن يحس باليـأس ويعتزل الحياة أكتر، يعني الحل ده ممكن يجيب نتيجة عكسية.

- وممكن ينصلح حاله .

- أنا مش موافق يا مصطفى .

يعترض الدكتور "جلال" ضارباً براحتيه على ركبتيه ، ويقوم ليغادر الجلسة ، لكن "عبد اللطيف" يمسك بذراعه ليمنعه:

- استنى بس يا جلال..

- اسـتنى ايه ده عايز يدمر الولد ، ثـم يُدير وجهَه ناحية أبي ويقول:

- شـوف يا مصطفى أنا مقدر حالتك الصحية والنفسـية، وعـارف ان الولد فعلا محتاج يتغير، بس مش لازم يتغير على مزاجك انت، سيبه للحياة تعلمه.

- الولد لو متغيرش هيضيع كل اللي بنيته.

- أنا عندي حل وسط.

يقولهـا الدكتـور "عبد اللطيـف" كأنَّ ذهنـه تفتَّق عن فكرة لامعة، فينتبهان له: سـيب له وصية زي اختبار كده، لو منفذهاش يبقى مفيش قدامنا غير الحل ده.

- اللي بتقولوه ده عبث والله، أنا لا يمكن أشـارك في اللعبة دي.

يعترض وأشاهده يغادر، من تحت كاميرا المراقبة ، بينما أبي يهُزُّ رأسه راضياً: أنا موافق على الحل ده، هسيب له وديعه في البنك لـو فتحها ونفذ اللي فيها يبقى ناوي يتغير، أما لو عاند ورفض، يبقى لازم يخوض التجربة القاسية دي.

- طيب وهنجيـب تحاليل طبية نقنعه بيهـا ازاي، افرض أخد التحاليل وسأل في مكان تاني.

- اكتب اسمه على تحاليل المرحومة يا عبد اللطيف.

يُومئ برأسِه فيبدو أنه اقتنع، وينتهى العرض، وتنتهي معه بقايـا ما في نبضي من حيـاة ، الطعنة هذه المرَّة أعمق من أن أحتويها، خنجرُها يسـافر في خـاصرتي إلى الحد الذي لا أملك أمامه إلاَّ اشـتهاءَ الموت، كيف حملت الحياة بين رحمها بشراً مثل أبي؟ لم يدُرْ بخُلدي قط أنه يمكن أن يكذبَ عليّ في الموت،

وينسب لي تحاليل أمي، ولم يدُرْ بخلدي أن الإنسانة الوحيدة التي استسـلمت لحبها بكل جوارحي يمكن أن تطعنني بهذه القسوة.

أعود إلي منزلي أشـلاءَ إنسان فتسـتقبلني "ريماس" بعناق دافـئ لكني أبعدها ، أمسـكها من كتفيهـا ، مخترقاً ببصري عينيها المندهشتين المبتسمتين ، وأواجهها بكل شيء :

- قبلتي على نفسك؟

- قبلت على نفسي ايه؟

- مش عارفه؟!

- في ايه يا حبيبي؟ بتتكلم ليه كده ؟

- قبلتي على نفسك تشـاركي في مؤامرة ضد انسان مسالم، عمره ما أذاكِ في حاجه؟ انا عملت لك إيه علشـان تتسـببي انت وأبوكِ اني انتحر؟ إني أعيش في عذاب، وألم لشهور مستني فيها لحظة موتي.

تنظر لعينيّ غيرَ مصدقةٍ مَّا أقول ، وَقْعُ المفاجأة عليها كان قاسـياً، يبدو أنها نسيت أو كادت أن تتناسي كذبتها الكبيرة في غمرة حياتنا سـويّاً ، أنساها عشقنا ما سَعَتْ دائماً أن تخفيه، تسـكت وتُحدِّق بي غيرَ قادرة علي التفوه بأي كلمة من شأنها

أن تهـدئَ هذا الـبركان الثائرَ بداخلي ، تطبـق جفنيها كأنها تسـتدِرُّ بدموعها التي أخذت تنسـاب علي وجنتيها المغفرة مني عن كل العذاب الذي سـببته لي، ولكـن عيني تنكرها ، تظـل جامدة محدقة فيها ، حتى تفتح عينيها المغرورقة تقول فيما صدرها ينتهج: نبيل ممكن قبل ما تحكم عليا بأي شـئ تسمعني ؟

أحَدِّجُهـا بنظرة مـلام ، غيرَ مُبالٍ بتلك النظـرة الذليلة في عينيها، فتستطرد متوسلة :

- أرجوك بلاش النظرة اللي شـايفاها في عينيك، النظرة دي كفيلـة إنها تموتن. حبي ليك كان حقيقي مش مزيف يا نبيل، مشـاعري ليك كانت الحاجة الوحيدة الصادقة في كل الكذب اللي مريت به، أنا من أول يوم قابلتك فيه وأنا حسـيت بشيء غريـب دخل قلبـي، متصورتش أبدا أنـه ممكن يكون حب، تخيلـت في الأول إنه أعجاب بيك كفنان أو مجرد ارتياح، لكن بعد كل مرة كنت بأقابلك وأشوفك كنت بتأكد ان اللي بحسة ليـك ده حب حقيقي، فكرت أتراجـع عن الكذبة ومكملش لكن ده كان هيكون السـبب في بعدي عنك، وأنا كنت بتمني وجودي جنبـك في كل لحظة من حياتي، عشـان كده رضيت وقبلـت أشـترك في اللعبـة دي، لكن بيني وبـين نفسي كنت بحتقـر نفسي لما أتخيل أنك ممكـن تحبني وانت مش عارف

إني كذبت عليك .. فكرت كتير أعترفلك بالحقيقة من أول يوم لكن خفت .. خفت تبعد عني وتسيبني انا بعترف إني غلطت لكن علشان بحبك

وتقـترب منِّـى قليلاً فتتحسَّـس بأناملها خـدِّي وتهمِسُ: أرجوك سـامحني وأنسي أي حاجة فاتـت وخلينا نعيش من جديد.

أعترضُ قائلاً : أزاي أسامحك وانتِ كنتِ كل يوم بتشوفيني بتعذب أزاي أسـامحك وانتي خلتيني افكر في الأنتحار لولا ان ربنا نجاني، أزاي هنسى كل الألم اللي عانيته بسـببك، للأسـف ياريماس الألم ده بقى محفور جوايا وكل أما أشوفك هفتكره.

تبكي بحُرقة، تُمسك بذراعي لكني لا أتعاطف معها، أدفعها بعيـداً وفي صدري تموج عذابـات الأيام التي اسـتعصى على إحساسي الشفاء منها .

- للأسف انا مش هعرف أبص في وشك تاني.

(يمكن أن نبقى)

نسـيرُ نحو القدر بأسرعَ ما يسـير هو نحونا، لأنه كُتِبَ علينـا ولم نُكتَبْ عليـه، نندفع إلى نهاياتـه مثقلين بصحائفَ كتبها قلمُـه هو بإرادتنا نحن، وبداخلنـا طوفان يجرفنا نحو حتميَّة المآلات وأرصفة الوصول.

أعود إلى المربط مكسورًا، فأذهب إلى حظيرة الخيول، أحمل سـطل الماء وأدفع باب بوكس قمـر لأدخله ، أجده على حاله القديم، مُغبّراً وفي أركانه تتمدد شباك العناكب، لم يطأه حافر فـرس من بعده كما وعدني أبي ، يتراءى لي طيفه تحت خيوط الشـمس المتسـللة من النافذة الصغيرة، كأنـه فرس مغزول من نور، سـاقه القصيرة سـليمة ومتوهجة أكثر من أخواتها، أملّس على ظهره فأشـاهد ما حول كفي يضيء، وألامس فيضاً دافئاً شـديدَ النعومة، يميل بعنقه المُقَوّس الجميل ليشرب من السطل، فأضع خدّي على وميض صدرهِ وأهمس:

- يا ترى يا قمر ممكن نتقابل تاني؟ ولا ده بيحصل لأرواح

البشر بس؟

يحرك رأسه المنير ناحيتي، فيطبق جفنيه ويفتحهما، يعدني أن نلتقي .

أصمُـت لفـترة طويلة دافئة الإحسـاس تنتهـي بأن أنزع السـلاح من جيبي، يتلاشى طيفُه الذهبيّ، كأنَّ السلاح أخافه، تلم الشـمس خيوطها كعروس ترفع ثوبَهـا عن تراب الأرض، وتغيم السماء كأنها تزُفُّ الحياة إلى قدر الموت.

أجلس فوق مكعب التبن وأدفن رأسي بين كَفّي، أحاول أن ألملِم أشـلاء أفكاري لأصل إلى قرار أخير، أبي يدير الحياة وهو على قيد الموت، يالجـبروت هذا الرجل، لم يترك لعنقي فرصة أن يمتدَّ ليستنشـق الحرية ولو لحظة خارج سـياج سيطرته، لكـنَّ ذكاءه خانه هـذه المرة، فأنا أمتاز عنـه بشيء لا يمكنه تعويضُه، أنا حيّ ولا زلتُ أملك القرار، لا أنكر أنَّ الحياة التي تسري في أوردتي شاحبة، وأنني أشعر بأفُولها لحظةً بعد أخرى، لكنّها ما زالتْ تكفيني للفوز.

أقلِّب المسـدس في كَفِي وأتأمّله ، كـم كانت حياتي مثلك تماماً يا صديقي، باردة وجافة ، أغرز ماسورته في جانب رأسي،

فوق أذني مباشرة، أقول لأبي كلمة واحدة أخيرة :

- خسرت.

أغمِضُ عينيّ ، أبتسم ، أضغط الزناد .